الجامعة الأمريكية المفتوحة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية

محاضرات في علوم القرآن

أ.د/ صلاح الصاوي
د/ محمد سالم

الأهداف الخاصة

يتوقع منك - عزيزي الدارس - بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على معرفة ما يلي:

١- معنى القرآن والفرق بينه وبين كل من: الحديث القدسي والحديث النبوي.

٢- موضوع علوم القرآن والفائدة من دراسته.

٣- كيفية نشأة هذا العلم ومراحل تدوينه.

٤- حكم الشرع في دراسة علوم القرآن.

٥- فضل علوم القرآن، ونسبته إلى غيره من العلوم.

وبقدر ما تتضح هذه الأهداف في نفسك يكون إقبالك أكثر على دراسة هذا العلم الجليل القدر.

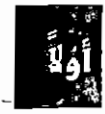

أولاً تعريف علوم القرآن

أمامنا - عزيزي الدارس - مركب إضافي مكون من كلمتين: كلمة (علوم) وكلمة (القرآن) وحتى نفهم هذا المركب الإضافي لابد لنا أن نفهم أجزاءه المضاف والمضاف إليه، فإذا أردنا أن نتعرف على الجزء الأول من مركبنا الإضافي قلنا:

التعريف بالعلم:

العلم لغة: إدراك حقيقة الشيء، كما تقول: علمت محمداً أي أدركت حقيقته، أو إدراك الحكم على الشيء، كما تقول: علمت محمداً عالماً، أي: أنك أدركت محمداً، وأدركت العلم وحكمت به على محمد [1].

أما تعريف العلم في الاصطلاح فهو: إدراك جازم مطابق للواقع ناشئ عن دليل، فمثلاً: نحن نعلم وجود الله عز وجل بالإدراك اليقيني الجازم المطابق للواقع ونفس الأمر وهو أن الله موجود.

وهذا الإدراك ليس ناشئاً عن عماهة الجهل إنما هو ناشئ عن الأدلة النقلية والعقلية التي تدل على وجود الله عز وجل.

ثم صارت كلمة (العلم) تطلق بعد حركة التأليف والتدوين للعلوم على مسائل العلم، فمعنى علوم القرآن: مسائله التي يبحث فيها مثل: أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل، وأسباب النزول، والمكي والمدني، والمحكم والمتشابه، وإعجاز القرآن والخاص والعام، إلى آخر ما سيأتيك من مباحثه التي ستدرسها

(١) القاموس المحيط مادة ع ل م وتاج العروس مادة ع ل م.

مفصلة في هذا العلم إن شاء الله .

وبهذا - عزيزي الدارس - نكون قد استوفينا ما أردنا بيانه من العلم لغة واصطلاحاً، وهو الجزء الأول من المركب الإضافي.

فماذا عن الجزء الثاني وهو المضاف إليه كلمة (القرآن)؟

التعريف بالقرآن:

القرآن في اللغة: مصدر قرأ، مرادف للقراءة، تقول: قرأت الكتابة قراءة، أو قرأت الكتاب قرآنًا، وورد ذلك في القرآن الكريم : ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾[1].

قال الراغب الأصبهاني: والقرآن في الأصل مصدر، وقد خص بالكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم [2].

ويطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع القرآن وعلى كل آية من آياته، فإذا سمعت من يتلو آية من آياته صح أن تقول إنه يقرأ القرآن، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[4].

القرآن في الاصطلاح: وذكر أهل العلم في تعريف القرآن الكريم أنه: "كلام الله، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المنقول إلينا بالتواتر المتعبد بتلاوته، المتحدي بأقصر سورة منه".

---

(١) سورة القيامة: ١٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ص٤٠٢، مصطفى الحلبي.

(٣) سورة الأعراف: ٢٠٤.

(٤) سورة النحل: ٩٨.

شرح التعريف:

كـــلام الله: الكلام جنس في التعريف يشمل كل كلام، وإضافته إلى الله يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة.

والمـــنزل: يخـــرج كلام الله الذي استأثر به: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[1].

عـــلى محمد صلى الله عليه وسلم : يخرج ما أنزل على الأنبياء من قبله كالتوراة والإنجيل.

المنقول بالتواتر: يخرج قراءات الآحاد والقراءات الشاذة.

المتعبد بتلاوته: يخرج الأحاديث القدسية عند من يرى أنها منزلة بألفاظها من عند الله.

المتحدي بأقصر سورة منه: يخرج الأحاديث القدسية كذلك لأن الإعجاز والتحدي خاص بالقرآن.

فـــإذا تأملـــت - عزيزي الدارس - في هذا التعريف، وجدت فيه أربع خصـــائص الإنـــزال على محمد صلى الله عليه وسلم، والنقل بالتواتر، والتعبد بتلاوته، والإعجاز.

الفرق بين القرآن الكريم وبين الحديث القدسي:

لكـــي نعـــرف الفرق بين القرآن الكريم وبين الحديث القدسي يحسن أن نعرف بالحديث القدسي كما عرفنا بالقرآن الكريم.

الحديـــث في اللغـــة: ضد القديم، ويطلق ويراد به كل كلام يتحدث به

---

(١) سورة الكهف: ١٠٩.

وينقل ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه.

والقدسي نسبة إلى القدس وهو الطهر، فالتقديس هو التطهير، والتقدس هو تنزيه الله تعالى، وهي نسبة تدل على التعظيم لأن مادة الكلمة في اللغة تدل على التنزيه والتطهير.

وهناك فروق بين القرآن وبين الحديث القدسي نشير إلى أهمها فيما يلي:

١- إن القرآن الكريم وقع به التحدي والإعجاز، والحديث القدسي لم يقع به ذلك.

٢- إن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى، فيقال: قال الله تعالى، أما الحديث القدسي فقد يروى مضافاً إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء، وقد يروى مضافاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتكون النسبة إليه نسبة إخبار، فيقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه.

٣- إن القرآن الكريم منقول بالتواتر فهو قطعي الثبوت، أما الأحاديث القدسية فأغلبها أخبار آحاد فهي ظنية الثبوت، والحديث القدسي قد يكون صحيحاً وقد يكون حسناً وقد يكون ضعيفاً.

٤- إن القرآن الكريم وحي باللفظ والمعنى، أما الحديث القدسي فهو وحي بالمعنى فقط دون اللفظ على الصحيح من قولي العلماء؛ ولذلك تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين.

٥- إن القرآن الكريم متعبد بتلاوته، فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة، وقراءته عبادة يثيب الله عليها بكل حرف عشر حسنات، كما جاء في الحديث: "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف"[1]، أما

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

الحديـــث القدسي فلا يجزئ في الصلاة، ويثيب الله تعالى على قراءته ثواباً عاماً، فلا يصدق عليه الثواب الذي ورد ذكره في تلاوة القرآن.

الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي:

الحديـــث النبوي هو ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة:

- فالقول مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى".

- والفعـــل مثل ما ثبت من تعليمه صلى الله عليه وسلم لأصحابه كيفية الصـــلاة ثم قال: "صلوا كما رأيتموني أصلي"؛ وكما ثبت من تعليمه لأصحابه كيفية الحج، وقال لهم: "خذوا عني مناسككم".

- والإقـــرار كأن يقر أمراً علمه عن أحد أصحابه من قول أو فعل، ومن أمثلـــته مـــا رواه البخاري ومسلم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجـــلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه فيختم بـــ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]، فلما رجعـــوا ذكـــروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أخبروه أن الله يحبه"[2].

- والصفة مثل ما روي من أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يرد في الطعام موجوداً ولا يتكلف مفقوداً، وأنه لم ينتقم لنفسه قط، وأنه ليس بفظ ولا غليظ ولا بسخاب في الأسواق" إلخ.

---

(١) سورة الإخلاص: ١.

(٢) متفق عليه.

ويفرق بين الحديث القدسي وبين الحديث النبوي، بأن الحديث القدسي وحبي بالمعنى من الله عز وجل كما سبق، أما ألفاظه فهي من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرجح من قول العلماء، أما الأحاديث النبوية فهي قسمان:

قسم توقيفي: تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم مضمونه من الوحي وبينه للناس بكلامه.

وقسم اجتهادي: وهو الذي استنبطه الرسول صلى الله عليه وسلم من فهمه للقرآن لأنه مبين له، وهذا القسم يقره الوحي إن كان صواباً ويسدد ما عسى أن يقع فيه من خطأ.

وبهذا يمكن أن يقال إن الأحاديث النبوية مردها جميعاً إلى الوحي، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1].

فإن قيل: إذا كان الحديث النبوي وحياً بالمعنى كالحديث القدسي لماذا لا نسميه قدسياً أيضاً؟

ويجاب عن ذلك بأنا نقطع في الحديث القدسي بنزول معناه من عند الله تعالى؛ لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله بقوله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى ولذا سمي قدسياً، أما الأحاديث النبوية فلم يرد فيها مثل هذا النص، فيحتمل في كل واحد منها أن يكون توقيفياً أو أن يكون مستنبطاً بالاجتهاد، ولذا سمينا الجميع نبوياً وقوفاً عند القدر المقطوع به، ولو كان لدينا ما يميز الوحي التوقيفي منها لسميناه قدسياً كذلك.

(١) سورة النجم: ٣، ٤.

أسماء القرآن وأوصافه:

لقد سمى الله كتابه بأسماء كثيرة، نذكر منها:

* القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1].

* الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[2].

* الفرقان، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[3].

* الذكر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[4].

* التنزيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5].

وقد غلب من أسمائه القرآن والكتاب، وقد روعي في تسميته قرآنًا كونه متلو بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، وفي التسمية بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه أن يكون محفوظاً في الصدور وفي السطور جميعاً، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ لا يوافق رسم المصحف المنقول بالتواتر، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح بالتواتر، وبهذه العناية المزدوجة بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، وتحقق وعد الله جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وكما سمى الله كتابه بأسماء كثيرة فقد وصفه بصفات كثيرة كذلك، منها:

---

(١) الإسراء: ٩.

(٢) الأنبياء: ١٠.

(٣) الفرقان: ١.

(٤) الحجر: ٩.

(٥) الشعراء: ١٩٢.

- النور كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾[1].

- الهدى والشفاء والرحمة والموعظة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

- إنه مبارك، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[3].

- إنه عزيز، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾[4].

- إنه مجيد، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾[5].

- إنه مبين، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[6]، إلى غير ذلك من الصفات الحميدة المبثوثة في تضاعيف القرآن الكريم.

وكما سماه ووصفه، فقد ذكر له - تعالى- وظائف جليلة نذكر منها:

إنه يهدي للتي هي أقوم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[7].

إنه يبشر المؤمنين الصالحين، بما وعدهم الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[8].

---

(١) النساء: ١٧٤.

(٢) يونس: ٥٧.

(٣) الأنعام: ٩٢.

(٤) فصلت: ٤١.

(٥) البروج: ٢١.

(٦) المائدة: ١٥.

(٧) الإسراء: ٩.

(٨) الإسراء: ٩.

إنه ينذر الكافرين المفترين على ربهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ﴾[1].

تعريف علوم القرآن لقباً:

عرفنا فيما سبق كلمتي علم وقرآن، اللتين يتكون منهما هذا المركب الإضافي (علوم القرآن)، لكن المركبات الإضافية قد تصير علماً ولقباً على معنى معين أو علم معين فتصبح لها دلالة جديدة، ولنضرب لك مثالاً:

فإذا قلنا (عبد الله) فإنها تطلق باعتبارها مركباً إضافياً على كل من عَبَدَ الله وتطلق باعتبارها علماً ولقباً على شخص سماه أبوه (عبد الله).

فتعريف علوم القرآن بالمعنى اللقبي: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيثيات مخصوصة، كنزوله، وجمعه، وترتيبه، إلى آخر ما يعرض لموضوع هذا العلم.

بيان موضوع علوم القرآن

موضوع هذا العلم هو القرآن الكريم من حيث النظر في كل المباحث المتعلقة به، سواء من حيث نزوله أو ترتيبه أو كتابته أو جمعه أو قراءاته أو إعجازه ونحو ذلك مع جمع ذلك وترتيبه في كتاب واحد.

(١) الكهف: ٤، ٥.

ثالثاً الفائدة من دراسة علوم القرآن

الفــائدة من دراسة علوم القرآن أنه بمثابة المنهج الضابط للعقل الإسلامي علـى وجــه الخصوص وللعقل الإنساني على وجه العموم في تعامله مع القرآن وتفسيره.

وفوق ذلك كله، فالفوائد من دراسة علوم القرآن كثيرة منها:

١- **حســن تفهم القرآن الكريم، والانتفاع به علماً وعملاً**، وإلا فمن جهــل مباحث علوم القرآن، واقتحم أسوار القرآن المنيعة، عز عليه فهم القرآن الكريم، ومثال ذلك:

ما وقع من الصحابي الجليل قدامة بن مظعون رضي الله عنه من الخطأ في فهــم قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُــوا إِذَا مَــا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

روى الدارقطــني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن الشرَّاب – يعــني شراب الخمر – كانوا يضربون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأيدي والنعال والعصي حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا في خلافــة أبي بكر أكثر منهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أبو بكــر يجلدهم أربعين حتى توفي، ثم كان عمر من بعده يجلدهم أربعين حتى أتي برجل من المهاجرين الأولين وقد شرب فأمر به أن يجلد، فقال: لم تجلدني؟ بيني

(١) المائدة: ٩٣.

وبينك كتاب الله، فقال عمر: وفي أي كتاب الله تجد ألا أجلدك؟ فقال له: إن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾، فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها، فقال عمر: ألا تردون عليه ما يقول؟ فقال ابن عباس: إن هؤلاء الآيات أنزلت عذراً لمن غبر (أي لمن شرب الخمر قبل التحريم) وحجة على الناس، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾[1] إلى آخره فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإن الله قد نهاه أن يشرب الخمر، فقال عمر: صدقت، ماذا ترون؟ فقال علي: إنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذي، وإذا هذي افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة، فأمر به عمر فجلد ثمانين جلدة [2].

٢- رد مطاعن الطاعنين على القرآن وحقيقته:

فبدراسة هذا العلم يستطيع الإنسان المسلم أن يرد على الشبهات التي أثيرت عن القرآن من قديم، وكذلك عن الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام حديثاً، على ما سيأتيك من أمثلة عديدة أثناء دراستك لهذا العلم الجليل.

٣- الإلمام بتاريخ القرآن الكريم والوقوف على مدى عناية الأمة به، والتحقق من مصداق قوله تعالى في بيانه الإلهي: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3].

٤- الوقوف على حجية القرآن وإعجازه وحقيقة كونه من عند الله.

---

(١) المائدة: ٩٠.

(٢) رواه الدراقطني، كتاب الحدود.

(٣) الحجر: ٩.

نشأة هذا العلم

مباحث علوم القرآن ترجع في جملتها إلى مصادر ثلاثة:

١- الوحي من قبل الله تعالى.

٢- البيئة المحيطة بذلك الوحي من الزمان والمكان والأشخاص والوقائع.

٣- لغة الوحي: التي هي اللسان العربي المبين.

وبيان ذلك:

إن علوم القرآن وجدت منذ نزول القرآن الكريم، فما دام هناك قرآن ينزل من عند الله عز وجل لزم حتماً وجود أصول وضوابط وقواعد لفهم كلام الله المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه هي مقومات علوم القرآن وحقيقته.

فالواقع أن قواعد علوم القرآن كانت مستقرة وثابتة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكانوا يسيرون في فهم القرآن الكريم على ضوئها وإن لم يصرحوا بها، فغني عن البيان أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الموحي إليه، المبين له كل ما ينبغي أن يكون عليه تحمل الوحي وما ينبغي أن يكون عليه أداؤه من الأحرف والكيفيات التي تؤدي بها هذه الأحرف، ثم ما يحتاج إليه صلى الله عليه وسلم مع ذلك من بيان معاني هذا الوحي المنزل عليه حتى يمكنه صلى الله عليه وسلم الوفاء بوظيفة البيان الموكلة إليه كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1].

(١) النحل: ٤٤.

ومن جهة البيئة المحيطة بهذا الوحي فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعيش هذه البيئة منذ أول كلمة من الوحي إلى آخر كلمة منه زماناً ومكاناً، مخاطباً بهذا الوحي أفراداً وجماعات وأحداثاً ووقائع، من سؤال وَرَدَ عليه فيحتاج إلى جوابه، أو قضية أو واقعة تحدث فيحتاج إلى بيان حكمها أو الحديث عنها، فيتنزل عليه الوحي ببيان جميع ذلك.

ومن جهة لغة الوحي فهو صلى الله عليه وسلم كان سيد من نطق بالضاد، وقد كان أعلم العرب بلسانها وبجميع اللهجات التي يُنادي بها هذا اللسان، ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالقرآن وعلومه كلها علماً تحقيقياً.

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا يسيرون في ضوء هذه القواعد وإن لم يصرحوا بها على ما سبق بيانه، فهذا عبد الله بن مسعود – الصحابي الفقيه – يقول: "والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه" (١).

فهذا الحديث من عبد الله بن مسعود يشير إلى معرفته ببعض قواعد علوم القرآن من مكان النزول وزمانه وسببه.

وكذلك عندما يقول رضي الله عنه: "إن الحامل المتوفى عنها زوجها تنقضي عدتها بوضع الحمل لقوله تعالى: ﴿وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾(٢).

---

(١) البخاري كتاب فضائل القرآن، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة.

(٢) الطلاق: ٤.

ويستدل أن سورة الطلاق التي فيها هذه الآية نزلت بعد سورة البقرة التي فيها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾[1].

إنما كان يشير بذلك إلى قاعدة من قواعد علوم القرآن وهي أن النص اللاحق ينسخ النص السابق، أي: يرفع تعلقه بالمكلفين.

وهكذا كانت علوم القرآن معروفة لدى بعض الصحابة رضوان الله عليهم ثم بلغوها بعد ذلك إلى التابعين، وهكذا بلغ التابعون من وراءهم من أتباع التابعين، كل ذلك على سبيل المشافهة والرواية.

مرحلة تدون علوم القرآن:

قلنا فيما سبق إن هذه الأبحاث لم تكن في العهود الأولى مدونة في كتاب بل كانت في صدر النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، وبلغها الصحابة للتابعين من بعدهم، إلى أن جاءت حركة تدوين العلوم والتي دونت فيه بعض علوم القرآن، إلا أنها لم تُجمع في مؤلف واحد بل وضعت ضمن علوم أخرى كالحديث أو التفسير، أو دونت بعض علوم القرآن على حدة مثل: "أسباب النزول" ألفه علي بن المديني شيخ البخاري، وألف أبو جعفر بن الزبير الأندلسي كتاباً في مناسبة الآيات سماه "البرهان في ترتيب سور القرآن " وألف أبو القاسم السهيلي كتابًا في "مبهمات القرآن "، وألف الراغب الأصفهاني في "غريب القرآن " وألف قتادة في "الناسخ والمنسوخ" إلى غير ذلك من المؤلفات التي دونت في جزئيات من علوم القرآن.

---

(١) البقرة: ٢٣٤.

إلى أن جـاءت مـرحلة جمعـت فيها هذه الأبحاث متكاملة مستقلة في مؤلفـات خاصة بها، سميت باسم (علوم القرآن)، من أمثال الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" وهو يعد كتاباً وافياً في مباحث علوم القرآن من أولها إلى آخرها إلا أنه يحتاج إلى تحقيق في الروايات وأقوال العلماء.

ثم ألـف الحـافظ السـيوطي كتاباً جليلاً حافلاً في علوم القرآن أسماه (الإتقان)، وقد جعله مقدمة لتفسيره الكبير الذي شرع فيه، الجامع بين الرواية والدراية المسمى "بمجمع البحرين ومطلع البدرين".

وهو في كتابه هذا، لم يدع شاردة ولا واردة إلا اطلع عليها، فلا عجب أن جاء كتابه كالفهرس لعلوم القرآن.

ومن محاسن (الإتقان) أنه يذكر في مقدمة كل نوع من أنواعه الكتب التي ألفـت مستقلة في هذا النوع، ثم يأخذ في ذكر نقول ونماذج من هذه الكتب، وفي هـذه النقول روايات صحيحة وجيدة، وفيها روايات زائفة مدسوسة كان الأولى أن ينبه عليها أو ينـزه كتابه عن ذكرها.

وبالجملـة: فالكتاب على نفاسته يحتاج إلى التحقيق والتعليق؛ حتى يسلم من هذه العيوب المعدودة، وكفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه.

ثم توالت حركة التأليف في عصر النهضة الحديثة، فقد اتجه علماء الشريعة وعـلماء القرآن والمفكرون اتجاهاً سديداً في معالجة الموضوعات المتعلقة بعلوم القرآن بأسلوب سهل يلائم العصر الذي نعيش فيه، والبيئة المحيطة بنا.

من هذه الكتابات، إعجاز القرآن للأديب المسلم مصطفى صادق الرافعي، وكتابي التصوير الفني في القرآن ومشاهد القيامة في القرآن للأستاذ سيد قطب، وتـرجمة القـرآن الكريم لشيخ الأزهر الجليل محمد مصطفى المراغي، وكذلك

تـــرجمة القـــرآن للأستاذ فريد وجدي، وألف الأستاذ محمد علي سلامة منهج الفـــرقان في علوم القرآن، تناول فيه مباحث كانت مقررة بكلية أصول الدين جامعـــة الأزهر الشريف، وتلاه أستاذنا الجليل عبد العظيم الزرقاني فألف كتابه "مـــناهل العـــرفان في علوم القرآن" وغيرها من أمثال "علوم القرآن" للأستاذ صـــبحي الصالح، و"مباحث في علوم القرآن" للأستاذ مناع القطان، و"اللآلئ الحســـان في علـــوم القرآن" للدكتور موسى شاهين و"المدخل لدراسة القرآن الكـــريم" للدكـــتور محمد أبو شهبة، ولا يزال أساتذة التفسير وعلماء القرآن يكتبون البحوث القيمة المتعلقة بالقرآن وعلومه.

خامساً: تسمية العلم

اصـــطلح العلماء على تسمية هذا العلم (**علوم القرآن**) ليكون اسماً لهذا العلم جامعاً لمسائله، مميزاً له عن غيره.

سادساً استمداده

يستمد علوم القرآن من العلوم كافة نقلية وعقلية، ومن علوم اللغة العربية كافة.

أما استمداده من العلوم العقلية فلتوقف ثبوت القرآنية على معرفة الله عز وجل ومعرفة صدق رسوله المبلغ عن الله عز وجل، ومعرفة صدق الرسول صلى الله عليه وسلم متوقفة على ثبوت المعجزة، ودلالة المعجزة على صدق الرسول تتوقف على امتناع تأثير غير القدرة القديمة فيها، وهذا كله مبين في علم العقائد.

وأما استمداده من العلوم النقلية، كاستمداده من أصول الحديث وبعض أصول الفقه والقراءات القرآنية وغيرها، وذلك مثل النسخ مثلاً المتوقف ثبوته على النقل، وأسباب النزول ومكانه وزمانه فلأن ذلك لا يقال فيه إلا بالنقل عمن حضروا مهابط الوحي.

وأما استمداده من العلوم العربية؛ فلأن الأدلة الكلية في القرآن الكريم والاستدلال بها يتوقف على معرفة اللغة العربية من حيث العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والمنطوق والمفهوم، وغيرها من المباحث اللغوية التي لها أثر في فقه القرآن وعلومه.

حكم دراسة علوم القرآن

دراسة علوم القرآن أمر ضروري – كما سبق – لفهم القرآن الكريم وفقه معناه، وهذه الدراسة من فروض الكفاية التي تخاطب بها الأمة في مجموعها، فإذا قام بها من تحصل بقيامه بها الكفاية سقط الإثم عن الباقين، وإلا أثم الناس جميعاً.

وأما بالنسبة لمن يتصدى لتفسير القرآن الكريم بالفعل فإن إتقان هذا العلم يعد بالنسبة له من الواجبات العينية لتوقف تفسير القرآن على تفهم مباحثه.

وقد يكون بعض فروع هذا العلم فرض عين على كل قارئ للقرآن كعلم التجويد[1] لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[2].

(١) المتعين من هذا العلم هو ما لا تصح القراءة إلا به، من ضبط التشكيل ونطق الحروف وغير ذلك مما يؤدي الجهل به إلى تغيير ألفاظ القرآن أو تغيير معانيها، أما بقية تفاصيل هذا العلم من الغنة والمد والتفخيم والتدقيق وغيرها فقد اختلف العلماء في تأثيم من يجهلها من قارئ القرآن الكريم (انظر شرح الجزرية ٢١، الإتقان: ١/ ١٣٢، البرهان للقمحاوي ص ٦).

(٢) المزمل: ٣.

فضل علوم القرآن

لا يخفى أن شرف العلوم بشرف موضوعها، ولما كان موضوع هذا العلم هو القرآن الكريم كان خير ما يشتغل به من العلوم، فهو الأساس الذي يتمكن به المفسر من حسن الفهم عن الله عز وجل ويرد به عن القرآن مطاعن الشانئين والمبطلين.

نسبة علوم القرآن إلى غيرها من العلوم

نسبة علوم القرآن إلى غيرها من العلوم التي لا تبحث في القرآن الكريم هي التباين، حيث إن علوم القرآن علم مستقل بذاته نشأ للدفاع عن القرآن الكريم وتاريخه ولحسن تفهم القرآن، ولا يغني غيره عنه في فهم القرآن الكريم.

الخلاصة

القرآن في اللغة: مصدر قرأ، مرادف للقراءة.

وفي الاصطلاح: كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المنقول إلينا بالتواتر المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه.

الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي:

القرآن الكريم	الحديث القدسي	الحديث النبوي
وحي من الله لفظاً ومعنًا	وحي بالمعنى دون اللفظ على الراجح	ما نسب إليه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.
وقع به التحدي والإعجاز	لم يقع	
لا ينسب إلا إلى الله تعالى	قد يروى مضافاً إلى الله أو مضافاً إلى الرسول ﷺ.	لا يروى إلا مضافاً إلى رسول الله ﷺ.
منقول بالتواتر فهو قطعي الثبوت	أغلبه أخبار آحاد فهي ظنية الثبوت	
متعبد بتلاوته وتتعين به القراءة في الصلاة ويثيب الله عليه بكل حرف عشر حسنات	يثيب الله عليه ثواباً عاماً ولا يجزئ في الصلاة	
لا تجوز روايته بالمعنى	تجوز روايته بالمعنى للعارف الضابط	تجوز روايته بالمعنى.

مادة علوم القرآن: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيثيات مخصوصة كنزوله وجمعه وترتيبه.

الفائدة من دراسة علوم القرآن:

١- حسن تفهم القرآن الكريم والانتفاع به علماً وعملاً.

٢- رد مطاعن الطاعنين على القرآن وحقيقته.

٣- الإلمـــام بتاريخ القرآن الكريم ومدى عناية الأمة به والتحقق من مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

٤- الوقوف على حجية القرآن وإعجازه وكونه من عند الله .

مباحث علوم القرآن في جملتها ترجع إلى مصادر ثلاثة:

١-الوحي من قبل الله تعالى.

٢-البيئة المحيطة بذلك الوحي من الزمان والمكان والأشخاص والوقائع.

٣-لغة الوحي التي هي اللسان العربي المبين.

مرحلة تدوين علوم القرآن:

١- كانـــت علـــوم القرآن مستقرة وثابتة في صدر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وإن لم يصرحوا بها ثم بلغها الصحابة للتابعين.

٢- ثم جاءت حركة تدوين العلوم، والتي دونت فيها بعض علوم القرآن ضمن علوم أخرى، كالتفسير أو الحديث أو دون بعضها على حدة.

٣- ثم جـــاءت مرحلة جمعت فيها هذه الأبحاث متكاملة مستقلة في مؤلفات خاصة بها.

٤- في عصر النهضة الحديثة اتجه إلى معالجة موضوعات علوم القرآن بأسلوب سهل يلائم العصر.

حكمه: من فروض الكفاية، أما بالنسبة لمن يتصدى لتفسير القرآن الكريم فهـــو مـــن الواجبات العينية في حقه، وقد تكون بعض مباحث هذا العلم من فروض الأعيان بالنسبة للعامة كأحكام التلاوة.

فضـــل علوم القرآن: هو خير ما يشتغل به من العلوم لشرف موضوعه وهو القرآن الكريم.

علوم القرآن من العلوم المستقلة بذاتها، لا يغني غيرها عنها في فهم القرآن.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: بين تعريف العلم في اللغة وفي الاصطلاح، وتعريف القرآن في اللغة وعند علماء الشريعة الإسلامية.

س٢: اذكر تعريف علوم القرآن لقباً.

س٣: وضح الفوائد من دراسة علوم القرآن.

س٤: مباحث علوم القرآن ترجع في جملتها إلى مصادر ثلاثة، ما هي؟

س٥: وضح المراحل التي مر بها تدوين علوم القرآن.

س٦: هات أمثلة لكتابات لمؤلفات خاصة جمعت فيها أبحاث علوم القرآن قديماً.

س٧: هات أمثلة كتابات حديثة في معالجة علوم القرآن بأسلوب سهل.

س٨: هل تقتصر علوم القرآن في استمدادها على علم واحد؟ وضح.

س٩: ما حكم دراسة علوم القرآن؟

س١٠: وضح فضل علوم القرآن بالنسبة لغيره من العلوم.

س١١: هل يمكن أن تغني العلوم الأخرى عن علوم القرآن في فهم القرآن الكريم؟

الوحدة الثانية

نـزول القرآن وما يتعلق بـه

الأهداف الخاصة

يتوقع منك – عزيزي الدارس – بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على معرفة ما يلي:

١- معنى نزول القرآن الكريم.

٢- التنـــزلات التي مر بها النص القرآني.

٣- الحكم والأسرار في تنجيم القرآن الكريم.

٤- حقيقة الوحي والرد على الشبهات المثارة حوله.

٥- كيفية الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٦- أول ما نـــزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نـــزل منه على الإطلاق.

٧- المراد بالأحرف السبعة التي نـــزل بها القرآن.

المقدمة

مبحث نزول القرآن مبحث مهم في دراسة علوم القرآن، بل هو أهم مباحثه، وذلك لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن الكريم، وأنه كلام الله ، وأساس للتصديق بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الإسلام حق، ثم هو أصل لسائر المباحث الآتية بعد في دراسة علوم القرآن فلا جرم أن يتصدرها جميعاء.

أولاً معنى نزول القرآن

تعريف معنى النـــزول في اللغة:

النـــزول مصدر نـــزل ومعناه لغة: الهبوط من علو إلى سفل، ومنه قوله تعـــالى: ﴿أَنـــزَلَ مِـــنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[1] ويطلق أيضاً على الإيواء والحلول في المكان، ومنه نـــزل الأمير المدينة، أي آوى إليها وحل بها.

معنى نـــزول القرآن اصطلاحاً:

إذا تـــبين معنى النـــزول في اللغة وأنه انحدار من علو إلى سفل، فإن هذا المعنى على الجملة هو المراد من نزول القرآن أيضاً، ولكن على نحو يليق بالقرآن الكـــريم، ونفـــوض عـــلم كيفية ذلك إلى الله عز وجل، وقد ذهب بعض أهل التأويل إلى تأويل الترول على معنى الخلق أو الإعلام وكل ذلك موضع نظر.

ما الذي نـــزل به جبريل على محمد ﷺ؟

القـــرآن الكـــريم كلام الله تعالى لفظاً ومعنًا، نـــزل به رسول الله - من الملائكة - وهو جبريل إلى رسول الله من البشر وهو محمد صلى الله عليه وسلم فســـمعه جبريل من الله عز وجل وسمعه محمد صلى الله عليه وسلم من جبريل، ولـــيس لأحـــد منهما فيه إلا التبليغ والأداء، كما أن المعلمين له في هذا الزمان والتالين له في الصلاة أو خارجها ليس لهم إلا ذلك، فالكلام ينسب إلى من قاله مبتدئًا منشئاً لا لمن أداه راويًا ومبلغاً.

---

(١) الرعد: ١٧.

وإيحاء الله بالقرآن إلى جبريل كتحميل الملك - أمينه - كتاباً يوصله إلى من أراد أن يصل إليه الكتاب من غير تدخل من الأمين في الكتاب.

فالقرآن الكريم من الله بدأ - فهو المتكلم به -، وإلى الله يعود يوم أن يسري عليه في ليلة فلا يبقى منه في المصاحف حرف ولا في الصدور آية!

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، وهي آية قد ذكرت مرتين في كتاب الله عز وجل مرة في سورة الحاقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]. والمقصود بالرسول فيها هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ومرة في سورة التكوير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[2].

والمقصود بالرسول فيها هو جبريل عليه السلام، فأضافه إلى الرسول من البشر تارة، وإلى الرسول من الملائكة تارة باسم الرسول في كلا الموضعين، ولم يقل إنه لقول ملك، ولا قول نبي لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ له من غيره لا منشئ له من عنده، ملك ولا قول نبي لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ له من غيره لا منشئ له من عنده ، فالإضافة في الموضعين إضافة بلاغ وأداء وليست إنشاء وابتداء.

شبهة وجوابها:

وهنا شبهة قد أثارها بعض أهل الزيغ يزعمون أن جبريل كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم بمعاني القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم

(١) الحاقة: ٤٠- ٤٢.

(٢) التكوير: ١٩- ٢١.

يعبر عنها بلغة العرب، وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحي إليه بالمعنى فقط.

وقد استند هؤلاء المبطلون في هذا الزعم الفاسد إلى قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1].

ووجه الدلالة – عندهم – أنه قد ذكر في هذه الآيات صراحة أن الروح الأمين الذي هو جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فدل هذا على أن الذي نزل به عليه هو المعنى دون اللفظ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

والحق الذي لا معدل عنه أن الذي نزل به جبريل وألقاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو اللفظ والمعنى معاً، ولا عبرة بهذا الزعم الفاسد الأثيم الذي يصادم صريح الكتاب والسنة والإجماع، والذي يؤول في النهاية إلى إنكار أن يكون القرآن كلام الله!

ولا يخفى أن استدلالهم على هذه الفرية فاسد من وجهين:

١ – تدل آيات كثيرة – من القرآن – على أن جبريل عليه السلام تلقى القرآن بلفظه ومعناه، وأوحاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[3]، وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزاً واللفظ لمحمد صلى الله عليه وسلم؟! إن الحق الذي

(١) الشعراء: ١٩٣– ١٩٥.

(٢) يوسف: ٢.

(٣) التوبة: ٦.

لا معدل عنه أنه ليس لجبريل في هذا القرآن إلا حكايته للرسول صلى الله عليه وسلم وإيحاءه إليه، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم في هذا القرآن سوى وعيه ثم حكايته وتبليغه، ثم بيانه وتفسيره ثم تطبيقه وتنفيذه.

٢- ليس هناك مانع من العقل يدل على امتناع أن يكون في قدرة الملك إثبات الألفاظ في قلب النبي صلى الله عليه وسلم .

وفضلاً عن ذلك فإن القائل بهذه الشبهة يلزمه مفاسد عظيمة منها: مخالفته لصريح القرآن والسنة وإجماع الأمة من كون القرآن معجزاً بلفظه، ومنها: أنه لا يكون هناك تعبد بتلاوة القرآن وغير ذلك، لذا كان هذا الزعم ساقطاً عن الاعتبار.

أستطراد مع هذه الشبهة وجوابها:

ولعل بعضهم يتساءل فيقول: لماذا لا يكون إنزال جبريل بالقرآن كما يلقن أحدنا شخصاً آخر ألفاظاً لها مدلولها ومعانيها ثم يأمره بتبليغها إلى ثالث، فيقوم ذلك الشخص بتبليغ ذلك المدلول بعبارة من عنده من غير أن ينسب إلى تفريط أو تدليس؟

والجواب: إن المرسل إذا أعطى رسوله كتاباً وأمره أن يقرأه على ثالث فليس له أن يبدل منه حرفاً واحداً، وقد نصر الحافظ السيوطي رحمه الله الحق وكسر الباطل في هذه الشبهة، وذلك يتمثل فيما نقل من كلام إمام الحرمين الجويني، وتعقيبه عليه بما يقصده، وذلك إذ يقول رحمه الله: قال الجويني: كلام الله المنزل قسمان:

قسم قال الله لجبريل قل للنبي الذي أنت مرسل إليه إن الله يقول: افعل كذا وكذا وأمر بكذا وكذا، ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبي

وقال له ما قال ربه، و لم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملك لمن يثق به: قل لفلان يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة واجمع جندك للقتال، فإن قال الرسول يقول لك الملك: لا تتهاون في خدمتي ولا تترك الجند يتفرق وحثهم على المقاتلة، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرسالة.

وقسم آخر قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل جبريل به من الله من غير تغيير كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين ويقول: اقرأه على فلان فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً. أ.هـ كلام الجويني.

فالقسم الثاني هو القرآن والقسم الأول هو السنة، وقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، وقد تبين بما ذكر حكمة جواز رواية السنة بالمعنى للعارف الضابط وعدم جواز رواية القرآن بالمعنى، وذلك لأن السنة أداها جبريل بالمعنى، وأما القرآن فإنه أداه باللفظ، وقد كان ذلك من تيسير الله على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين: قسم يروونه بلفظه الموحي به، وقسم يروونه بالمعنى، ولو جعل كله مما يروي باللفظ لشق ذلك عليهم، ولو جعل كله مما يروى بالمعنى لم يؤمن فيه التبديل والتحريف.

شبهة أخرى وجوابها:

إننا نقرأ في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾[2]، فكيف

(١) غافر: ٢٧.

(٢) غافر: ٣٧.

يسمى ما يحكيه الله تعالى عن الأمم السابقة قرآناً ومن المعروف أن كلام الله قديم؟

والجـــواب على هذه الشبهة أن الكلام يُطلق على اللفظ والمعنى، ويطلق عـــلى كـــل منهما وحده، وناقله عمن تكلم به من غير تحريف لمعناه ولا تغيير لحروفه ونظمه مخبر مبلغ فقط، والكلام إنما هو لمن بدأه، أما إن غير حروفه ونظمه مع المحافظة على معناه فينسب إليه اللفظ فقط، وينسب من جهة معناه إلى من تكلم بـــه ابـــتداءاً، ومن ذلك ما أخبر الله به عن الأمم الماضية، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَـــى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وقوله: ﴿وَقَـــالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ فهاتان الآيتان تسميان قرآناً وتنسبان إلى الله كلاماً له باعتبار حروفهما ونظمهما؛ لأنهما من الله لا من كلام موسى وفرعون، لأن النظم والحروف ليسا منهما، وتنسبان إلى موسى وفرعون باعتبار المعنى، فإنه كان واقعاً منهما، وهذا وذاك قد علمهما الله في الأزل، وأمر بكتابتهما في اللوح المحفوظ، ثم وقع القول من موسى وفرعون بلغتهما طبق ما كان في اللوح المحفوظ، ثم تكلم الله بذلك بحروف أخرى ونظم آخر في زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فنسب إلى كل منهما باعتبار، وأما وصـــف كلام الله بالقدم فلم يعرف عن الصحابة رضي الله عنهم ولا عن أئمة الســـلف رحمهـــم الله ، وإنما كان أهل السنة يقولون أيام المحنة: كلام الله غير مخلوق، ويقول مخالفوهم: كلام الله مخلوق، فوصف كلام الله بأنه قديم اصطلاح حادث، ولو جرينا عليه قلنا كلام الله قديم النوع حادث الآحاد، لأن الله تعالى لم يـــزل متكـــلماً، ولا يزال متكلماً بما يشاء، وحتى أنه ليتكلم يوم القيامة مع المؤمـــنين والكافرين وغيرهم بما يشاء، كما ثبت – في الصحيحين – عن عدي بن حـــاتم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان..." الحديث مع أحاديث أخرى في الموضوع.

ثانياً تنـزلات القرآن

شرف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنـزلات:

١- التنـزل الأول إلى اللوح المحفوظ، ودليله قول الله سبحانه: ﴿بل هو قـرآن مجـيد في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[١]. وكان هذا الوجود في اللوح بطريقة وفي وقـت لا يعلمه إلا الله ، فوجب الإيمان به مع تفويض علم كيفيته إلى الله عز وجل.

٢- التنـزل الثاني للقرآن: كان التنـزل الثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٣]، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٤].

فقـد دلـت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنـزل في ليلة واحدة، توصـف بأنهـا مباركة أخذاً من آية الدخان، وتسمى ليلة القدر أخذاً من آية القدر، وهي من ليالي شهر رمضان أخذاً من آية البقرة، وإنما قلنا ذلك جمعاً بين هذه النصوص في العمل بها، ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنـزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقاً لا في ليلة واحدة، بل على مدى سنين عديدة، فيتعين أن يكون هذا النـزول الذي نوهت به الآيات الثلاث نزولاً آخر غير النـزول على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا

(١) البروج: ٢١، ٢٢.

(٢) الدخان: ٣.

(٣) القدر: ١.

(٤) البقرة: ١٨٥.

النـــزول وأنه بيت العزة من السماء الدنيا.

فعن ابن عباس أنه قال: "فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينـــزل به على النبي صلى الله عليه وسلم".

وعـــن ابن عباس أيضاً قال: "أنـــزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينـــزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه في أثر بعض".

وقـــد ذكر الحافظ السيوطي في كتابه الإتقان روايات عن ابن عباس بهذا المعـــنى، وقال أسانيدها كلها صحيحة، وهذا لا يقوله ابن عباس بمحض الرأي والاجتهاد بل له حكم المرفوع.

وإذا كانـــت هذه الآيات لا تنافي بينها فهي لا تتنافى في الواقع الثابت من أنه نـــزل على النبي صلى الله عليه وسلم في غير شهر رمضان وليلة القدر، لأن ذلك في نزوله إلى السماء الدنيا كما علمت، وهذا في نزوله على النبي صلى الله عليـــه وســـلم منجماً بحسب الوقائع والأحوال، وجواب الأسئلة والأمثال في عشـــرين سنة، أو ثلاث وعشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة على الخلاف في مـــدة إقامـــته في مكة بعد البعثة، وهذا البيان الذي ذكرناه في المراد من الآيات المذكـــورة وطرق الجمع بينها هو الصحيح المعتمد حتى حكى بعضهم الإجماع عليه.

وهـــناك أقوال أخرى ذكرها الحافظ السيوطي وغيره أعرضنا عن ذكرها لكونهـــا بمعزل عن التحقيق، وهي محجوجة بالأدلة التي سقناها بين يديك تأييداً للقول الأول.

٣- التنـــزل الثالث للقرآن وهو المرحلة الأخيرة التي منها شع النور على

العـــالم، ووصـــلت هداية الله إلى الخلق، وكان النـــزول بواسطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1].

الحكمة في تعدد النـــزول وأماكنه إجمالاً وتنجيماً:

والحكمـــة في إنـــزال القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا على ما ذكره الحـــافظ السيوطي، نقلاً عن أبي شامة تفخيم أمره وأمر من نـــزل عليه بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنـــزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمـــم، وبإنـــــزاله مرتين، مرة جملة ومرة مفرقاً، بخلاف الكتب السابقة فقد كانت تنـــزل جملة مرة واحدة.

قـــال الـــزرقاني في مـــناهل العرفان: وفي تعدد النـــزول وأماكنه مرة في اللـــوح، وأخرى في بيت العزة، وثالثة على قلب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلـــك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن وزيادة للإيمان به، وباعث على الـــثقة فـــيه، لأن الكلام إذا سجل في سجلات متعددة وصحت له وجودات كـــثيرة، كـــان ذلك أنفى للريب عنه، وأدعى إلى تأكيد ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به مما لو سجل في سجل واحد أو له وجود واحد [2].

(١) الشعراء: ١٩٣-١٩٥.

(٢) مناهل العرفان: ٤٨.

كيفية إنزال القرآن على النبي ﷺ

ومن المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن جملة واحدة، بل كان منجماً متفرقاً على مدى متطاولة من بعثته صلى الله عليه وسلم إلى قرب وفاته، ويأتلف البرهان على هذا المعلوم وهو ما قد أعطاه علمه الضروري من بينات ثلاث:

١- مشاهدة الواقع الذي لا يسع أحد مدافعته لا من أهل الإسلام ولا من غيرهم، ومن ثم لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام فضلاً عن أوليائه على إنكار شيء من أمر هذا الواقع.

أما أولياء الإسلام فظاهر، وأما أعداؤه فهم وإن أنكروا أصل نزول القرآن من قبل الله عليه بالكلية لم ينكروا ادعاه صلى الله عليه وسلم هذا النزول، وأن هذا الادعاء استغرق من حياته مدة طويلة منذ كان على رأس الأربعين إلى قرابة وفاته، وأنه كان يتكرر بالتالي مرات كثيرة، يقول في كل واحدة منها: إنه قد تنزل عليه في هذه المرة كذا من القرآن.

٢- التواتر بكل قسميه اللفظي والمعنوي:

أما اللفظي فيتمثل في النصوص العديدة من القرآن المتواتر والذي يفيد كل واحد منها على حدته علاج حادثة بعينها وقعت في وقت مخصوص فضلاً عن تصريح بعض النصوص من الذكر الحكيم بتنجيمه وتفريقه كقوله تعالى في آخر سورة الإسراء: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾[1].

(١) الإسراء: ١٠٦.

وأما التواتر المعنوي فيتمثل في نصوص السنة المتكاثرة المتحدثة عن أسباب النـــزول، فإنهـــا وإن لم تتواتر ألفاظها فإنها تجمع كلها على قدر مشترك هو تنجيم القرآن الكريم.

٣- التنجيم هو مقتضى الحكمة حسبماً أفصحت عن ذلك آية الإسراء: ﴿وَقُـــرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـــرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِـــيلاً﴾[1]، ولا يجـــوز في عقل عاقل أن يعدل الله عن مقتضى الحكمة إلى ما يخالف مقتضاها.

(١) الفرقان: ٣٢.

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن الكريم

لتنجيم القرآن الكريم جملة من الحكم والأسرار نشير إلى بعضها فيما يلي:

الحكمة الأولى: تثبيت قلب النبي ﷺ وتقويته:

لقد تولى الله بنفسه بيان هذه الحكمة فقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً**﴾، يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله: ﴿**كذلك**﴾ أي أنزلناه مفرقاً ﴿**لنثبت به فؤادك**﴾ أي: لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل، كما ورد في الحديث – المتفق عليه – عن ابن عباس رضي الله عنهما: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة".

ولقد اقتضت سنة الله تعالى في العادة أن يلاقي النبي عليه الصلاة والسلام أذًا كثيراً من قومه، فكان لاتصال الوحي به إذ ذاك وتتابع نزول الآيات عليه تشد من أزره وتحمله على الصبر والمصابرة، وتعده بالنصر والتأييد في النهاية؛ كان لذلك أبلغ الأثر في مواساته، وتخفيف تلك الشدة عنه، وإزاحة معاني الغربة

والضعف عن نفسه فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[2].

فلو أن القرآن نزل كله عليه جملة واحدة، لكان لانقطاع الوحي عنه بعد ذلك أثر كبير في استشعاره الوحشة والغربة، ومهما يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوتي من العزيمة والصبر فإن لبشريته أيضاً أثراً بيناً في حياته ما دام أنه بشر، وقد كان لديه صلى الله عليه وسلم من قوة الإيمان بالله ما يكفي لأن يحمله على تبليغ دعوة ربه، والجهاد في سبيلها، ولكنه على ذلك لم يكن به غناء عن المواساة والمعونة والتسلية إذ يأتيه كل ذلك من ربه المرة تلو المرة يعيده إلى الأمن والانشراح والأنس والرضى، وهذا هو ما عبر عنه البيان الإلهي بالتثبيت في قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[3].

الحكمة الثانية: التدرج في تربية الأمة الناشئة علماً وعملاً:

وينضوي تحت هذه الحكمة تيسير حفظ القرآن على الأمة المسلمة، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه، فاقتضت حكمته العليا أن ينزله

---

(١) ق: ٣٩- ٤٠.

(٢) الحجر: ٩٤- ٩٩.

(٣) الفرقان: ٣٢.

إليهم مفرقاً ليسهل عليهم حفظه، ويتهيأ لهم استظهاره، وليسهل فهمه كذلك.

وينضوي تحتها كذلك تيسير تطبيقه والعمل به وتحوله إلى عمل محسوس يسير في دنيا الناس، فإن مما لا ريب فيه أن القرآن قد احتوى على متن الفقه الإسلامي كله – أي على عامة أحكامه في الجملة – سواء ما يتعلق بالعبادات أو المعاملات المدنية أو الأحوال الشخصية أو العقوبات أو النظم الدستورية والمالية، وكان العرب قبل الإسلام متفلتين عن كل قيد، لا يخضعون لنظام فكان من العسير عليهم أن يتقبلوا أحكام القرآن كلها في طفرة مفاجئة، من أجل ذلك أخذهم القرآن بالوسيلة التربوية التي لا بد منها، وهي وسيلة التدرج في التشريع، فنزلت أولاً الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها، حتى إذا آمن الناس وثابوا على عقيدة التوحيد، نزلت آيات الحلال والحرام، وعامة الأحكام في مهل وتدرج.

وفي ذلك يروي البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "إنما نزل أول ما نزل من القرآن سور من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول ما نزل شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا".

الحكمة الثالثة: مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها وتفرقها:

فكلما جد منهم جديد تنزل من القرآن ما يناسبه، وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقه، وتحمل هذه الحكمة في طيها إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته كما في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ

أَمْـــرِ رَبِّي﴾[1]، أم كانت لغرض معرفة حكم الله في الحادثة: ﴿وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[2]، ومما لا ريب فيه أن تلكم الأسئلة كانت ترفع إلى النبي صـــلى الله علـــيه وسلم في أوقات مختلفة، ولا بد أن الجواب عليها كذلك في أوقات مختلفة.

الحكمة الرابعة: الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده:

وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد صلى الله عليه وسلم، ولا كلام مخلوق ســـواء، وبيان ذلك أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجملـــه، يجـــري دم الإعجاز فيه من أوله إلى آخره، وهنا نتساءل كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش على حين أنه لم يتنـــزل جملة واحدة بل تنـــزل آحاداً مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر مـــن عشرين عاماً والجواب أننا نلمح هنا سراً من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فـــذة من سما الربوبية، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان، نـــزل منجماً ولكنه تم مترابطاً محكماً، وتفرقت نجومه تفرق الأسباب ولكـــن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب، ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً ولكن تكامل انسجامه بداية وختامًا ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3].

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) هود: ١.

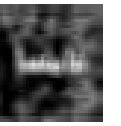

الوحي

كل ما قدمناه لك - عزيزي الدارس - في نزول القرآن الكريم لا يسلمه ولا يقبله إلا من آمن بالوحي وأساليبه، والاتصالات الروحية بالملأ الأعلى، واستمداد الإنسان لمعارفه عن الله تعالى بواسطة الملك، على غير الطريقة المعتادة بين البشر.

حقيقة الوحي:

أصل الوحي في اللغة: إعلام بخفاء.

ومنه الإلهام الفطري للإنسان، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾[2].

ومنه الإلهام الغريزي للحيوان وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾[3].

ومنه الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كما في قوله تعالى عن عبده زكريا: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[4].

---

(١) القصص: ٧.

(٢) المائدة: ١١١.

(٣) النحل: ٦٨.

(٤) مريم: ١١.

وقـــد يطلق الوحي على ما يوسوس به الشيطان ويزينه من خواطر الشر للإنســـان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1].

أما الوحي في الاصطلاح فهو: إعلام الله أنبياءه ما شاء أن يعلمهم به من ألوان العلم، ويكون على أنواع شتى.

أنواع الوحي:

الوحي أربعة أنواع تتمثل فيما يلي:

مـــنها ما يكون مكالمة بين العبد وربه كما كلم الله موسى تكليماً، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[2].

ومـــنها مـــا يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب مصطفاه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعاً ولا يجد فيه شكاً، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب"[3].

ومـــنها ما يكون مناماً صادقاً يجئ في تحققه ووقوعه كما يجئ فلق الصبح في تبلجه وسطوعه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"[4]، ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء وحي يجب اتباعه

---

(١) الأنعام: ١٢١.

(٢) النساء: ١٦٤.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية.

(٤) متفق عليه.

مـــا جاء في قصة إبراهيم عليه السلام من رؤيا ذبحه ولده إسماعيل، ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما هم إبراهيم عليه السلام بذبح ولده لولا أن الله من عليه بالفداء.

قـــال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

ومـــنه مـــا يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو الوحي الجلي، وهو أشهر أنواع الوحي وأكثرها، وهو المقصود بدراسة الوحي في مادة علوم القرآن لأن وحي القرآن كله من هذا القبيل.

قال تعالى في الإشارة إلى أنواع الوحي: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2].

والآن - عزيـــزي الـــدارس -: تنبه بفكر موضوعي مجرد، وعقل علمي متجدد، ما هو هذا الوحي الذي جاء بهذا القرآن فوضعه بين يدي محمد صلى الله عليه وسلم؟

أهـــو نوع من الإلهام النفسي؟ أم هو حركة فكرية داخلية؟ أم هو إشراق روحـــي جاءه عن طريق الكشف التدريجي؟ أم هو ضرب من الصرع والجنون كان ينتابه كما قد يزعم ذلك المبطلون والخراصون؟ أم هو استقبال لحقيقة ذاتية

---

(١) الصافات: ١٠٢- ١٠٥.

(٢) الشورى: ٥١.

مستقلة عن كيانه يتلقاها من خارج فكره وشعوره؟

وللإجابـــة على هذه التساؤلات فإننا نرجع بك - عزيزي الدارس - إلى حقائق التاريخ الثابتة الواصلة إلينا عن طريق النقل الصحيح، وإذا رجعنا نسأل حقـــائق التاريخ فإنها تضعنا أمام حديث قصة بدء الوحي الذي رواه البخاري ومســـلم وغيرهمـــا، والحديث طويل، وحسبنا أن نجتزئ منه في هذا المقام ما يكشف لنا سبيلاً صحيحًا للإجابة على هذه الأسئلة.

ففـــي الحديـــث أن الملك فاجأه في غار حراء وهو يتعبد، فقال له : اقرأ فقال: ما أنا بقارئ، فأخذه الملك فغطه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، وتكرر هذا من الملك والرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وفي المرة الثالثة قال الملك: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

فكان ذلك أول ما نـــزل من القرآن، وفي الحديث أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام نـــزل عقب ذلك من الغار عائداً إلى البيت وإن فؤاده ليرتجف خوفاً، وفي الحديـــث أيضاً أن خديجة ذهبت به إلى ورقة، وأن ورقة أخبره أن هذا هو الناموس (أي الوحي) الذي نـــزل على موسى وطمأنه أنه ليس شراً.

وفي الحديـــث أيضاً أن الوحي قد انقطع بعد ذلك مدة طويلة من الزمن وأن الضـــيق والألم قـــد استبد به صلى الله عليه وسلم من ذلك، خوفاً من أن يكون قد أساء فتحول عنه الوحي لذلك، ثم إنه رأي ذلك الملك مرة أخرى وقد مـــلأ مظهره ما بين السماء والأرض قال: فرعبت منه ورجعت فقلت: زملوني زملوني، فنـــزل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ

(١) العلق: ١-٥.

فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1]. ثم تتابع الوحي بعد ذلك.

هذه الحقائق الواردة في هذا الحديث لا يمكن تجاهلها لأمرين اثنين:

١- إن ظاهرة الوحي التي يتحدث الناس عنها وصلت إلينا عن طريق هذا الحديث، فإذا ضربت صفحاً عنه فاضرب صفحاً عن هذه الكلمة نفسها إذ لا معنى للبحث في شيء غير موجود ولا واقع.

٢- الحديث ليس من قبيل الاستنتاجات النظرية أو التاريخية بل هو خبر نقل بواسطة سند متصل من الرواة العدول الضابطين.

فإذا فرضنا – عزيزي الطالب – أن الوحي ليس إلا شعوراً نفسياً أو إشراقاً روحياً أو إلهاماً داخلياً، ثم عدنا إلى هذا الحديث وجدناه يناقض هذا الفرض مناقضة صريحة صارخة.

إن شيئاً من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي لا يستدعي الخوف والرعب واصفرار اللون، وليس ثمة انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى، وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين دفعات من الرعب والخوف، وأنت خبير أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون، كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لا سبيل إلى اصطناعها، والتمثيل بها.

ولقد فوجئ محمد صلى الله عليه وسلم وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه وهو يقول له (اقرأ) حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مرده إلى حديث النفس المجرد، وإنما هي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات..

---

(١) المدثر: ١-٥.

وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلاً في كل مرة اقرأ، يعتبر تأكيداً لهـــذا التلقي الخارجي، ومبالغة في نفي ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط.

وفيما ألهم الله به خديجة من الذهاب به عليه الصلاة والسلام إلى ورقةَ ابن نوفـــل، وعرض الأمر عليه تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذي فوجئ به عليه الصـــلاة والسلام إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد أنـــزل على الأنبياء من قـــبله، وإزالـــة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه.

أمـــا انقطـــاع الوحي بعد ذلك، وتلبثه ستة أشهر أو أكثر على الخلاف المعروف فيه، فينطوي على مثل المعجزة الإلهية الرائعة، إذ في ذلك أبلغ الرد على ما يفسر به محترفوا الغزو الفكري الوحي والنبوة من أنه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمل والتكرار، وأنه أمر داخلي منبعث من ذاته نفسها.

لقـــد اقتضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء مدة طويلة، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك، ثم يتحول القلق لديه إلى خـــوف في نفسه من أن يكون الله عز وجل قد قلاه بعد أن أراد أن يشرفه بالوحي والرسالة، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه بما رحبت، وراحت تحدثه نفسه كـــلما وصل إلى ذروة جبل أن يلقي بنفسه منها، إلى أن رأى ذات يوم الملك الذي رآه في حراء وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول: يا محمد أنت رسول الله إلى الناس، إن هذه الحالة التي مر بها رسول الله تجعل مجرد التفكير في كـــون الوحي إلهاماً نفسياً ضرباً من الجنون، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمر بإلهامه أن تأمله بمثل هذه الأحوال.

وربما عاد محترفو التشكيك يسألون لماذا كان ينـزل عليه صلى الله عليه وسلم الوحي وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرىٰ الملك أحد منهم سواه؟

الجـواب: يكمن في هذه القاعدة العلمية المسلمة من أنه ليس من شرط وجـود الموجودات أن ترى بالأبصار، إذ أن وسيلة الأبصار محدودة بحد معين وإلا لاقتضـى ذلك أن يصبح الشيء معدوماً إذا ابتعد عن البصر، والأصل في الملك أنه مخلوق لطيف لا يرى بالأبصار في الدنيا، فكون الصحابة لا يرونه فهذا أمـر طبيعي، أما كون رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه فلا عجب في ذلك لأنـه صـلى الله عليه وسلم هو الذي ينـزل عليه الوحي، وقد ميز عن غيره بخصـال عديـدة منها أنه يرى ما لا يرون: مثل الملائكة والجن، ويعلم ما لا يعـلمون مما أخبره الله تعالى، وكل ذلك من الغيب الذي أطلع الله عليه رسوله صـلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**﴾[1].

ثم إن استمرار الوحي بعد ذلك يحمل الدلالة نفسها على حقيقة الوحي، وأنه ليس كما أراد المشككون ظاهرة نفسية محضة.

ونستطيع أن نجمل هذه الدلالة فيما يلي:

١- التميـيز الواضح بين القرآن والحديث إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه، لا لأن الحديث كلام مـن عنده لا علاقة للنبوة به، بل لأن القرآن موحي به إليه بنفس اللفظ والحـروف بواسطة جبريل عليه السلام، أما الحديث فمعناه وحي من الله عز وجل ولكن لفظه وتركيبه من عنده صلى الله عليه وسلم ، فكان يحاذر

(١) الجن: ٢٦، ٢٧.

أن يختلط كلام الله عز وجل الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو.

٢- كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن بعض الأمور فلا يجيب عليها، وربما مر على سكوته زمن طويل حتى إذا أنزلت آية من القرآن - في شأن ذلك السؤال - طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأن سؤاله.

٣- كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية، كقصة يوسف وأم موسى حينما ألقت وليدها في اليم وقصة فرعون ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه صلى الله عليه وسلم أمياً: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1].

وكما لا يمكن لأمي لا يكتب ولا يحسب أن يعرف بطريق المكاشفة حقائق تاريخية؛ فأولى أن لا يعرف حقائق علمية لم يصل العلم إلى اكتشافها إلا مؤخراً بعد اكتشافه أعقد الأجهزة وأدق المختبرات.

لقد تضمن القرآن بين دفتيه من الحقائق العلمية ما لم يكتشف بعضه إلا من سنين، سواء ما كان منها في الأنفس أو في الآفاق، مصداق قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2]. وهذا الحقائق العلمية تتضمن شهادة الرب جل وعلا أن محمداً حق، وأن الوحي حق، وأن القرآن حق، فهي بمثابة قول الله جل وعلا صدق عبدي فيما يبلغ عني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ

(١) العنكبوت: ٤٨.

(٢) فصلت: ٥٣.

شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[1]، فمن ذا الذي أعلم محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق والدقائق وهو النبي الأمي الذي لا يكتب ولا يحسب؟ من يا أولي الألباب؟ قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[2].

كيفية وحي الملك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لا تخلوا كيفية وحي الملك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من إحدى حالتين:

الأولى: وهي أشد أحواله عليه، أن يأتيه مثل صلصلة الجرس فيفصم عنه[3] وقد وعا عنه ما قال.

الثانية: وهي أهون منها، أن يأتيه الملك في صورة رجل فيكلمه، فيعي عنه ما يقول، وبهاتين الكيفيتين كان نزول القرآن.

فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول"[4].

---

(١) الأنعام: ١٩.

(٢) الفرقان: ٦.

(٣) أي يذهب عنه.

(٤) البخاري باب بدء الوحي.

أول ما نـزل وآخر ما نـزل

أخي الدارس أختي الدارسة: هذا البحث من دراسة علوم القرآن يعتبر من المباحث الجليلة في مجال الدراسات القرآنية، إذ يتعلق به فوائد مهمة، منها:

١- معرفة الناسخ من المنسوخ عند التعارض، وذلك فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى الآيات يغاير الحكم في الأخرى.

٢- معرفة التدرج في التشريع كمعرفة الآيات التي وردت في شأن الخمر.

٣- معـــرفة تاريخ التشريع الإسلامي، كالعلم بأن الآيات الدالة على وجوب شهر رمضان نـــزلت في مكان كذا سنة كذا مثلاً.

٤- إظهار مدى عناية الأمة بالقرآن الكريم، حتى عرف في دراسة علوم القرآن أول ما نـــزل وآخر ما نـــزل.

وهذا البحث عمدته النقل ولا طريق فيه للاجتهاد إلا بالترجيح بين الأدلة أو الجمـــع فـــيما ظاهره التعارض، ثم أولية النـــزول وآخريته تارة تكون على الإطـــلاق يعـــني أولية النـــزول على الإطلاق، وآخريته على الإطلاق، وتارة تكون بالنسبة إلى موضوع معين، وتسمى أولية مقيدة كأول ما نـــزل في الخمر وآخر ما نـــزل فيها، وأول ما نـــزل في الربا وآخر ما نـــزل فيه، وهكذا.

وكلامـــنا - عزيزي الدارس - هنا عن الأولية المطلقة والآخرية المطلقة لا عن الأولية المقيدة والآخرية المقيدة، وذلك لكثرة الأوائل والأواخر المقيدة بموضوع معين، فهي كثيرة يستلزم ذكرها استقراءً تاماً وذلك يحتاج إلى مؤلف خاص.

أولاً: أول ما نـــزل:

وفيه أربعة أقوال:

١- صدر سورة العلق: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو مروي عن عائشة رضي الله عنها كما في حديث بدء الخلق، رواه الشيخان وغيرهما.

٢- ســورة المدثــر وهو مروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، رواه الشــيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه قال: سألت جابر بن عبد الله أي القــرآن أنـــزل قبل؟ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: (اقرأ) فقال: أحدثكــم ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني جاورت بحراء، فلما قضيت جواري نــزلت فاستبطنت الوادي فنوديت فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو (يعني جبريل) جالس على عرش بين السماء والأرض فأخذتني رجفة فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثروني فأنـــزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾.

وقد ذكر الحافظ السيوطي تأويلات لمحاولة الجمع بين رواية عائشة وجابر ابن عبد الله ومنها:

١- مــراد جابــر في أولية المدثر سورة كاملة أي أول سورة كاملة نــزلت سورة المدثر، ولا دليل لهذا التأويل لأن سورة المدثر لم تنــزل كلها دفعة واحدة.

٢- ومــنهم من أوله بأنه أول ما نــزل أي ما رواه جابر بن انقطاع الوحي، ويــرد بــأنهم عارضوا جابراً بــ (اقرأ) فقال للمعترضين: أحدثكم عن رسول الله وتحدثوني.

٣- ومنه من جعل الأولية نسبية كل يخبر بما يعلم.

٤- ومنهم من جعل أولية ما قاله جابر في الرسالة وأولية (اقرأ) في النبوة.

٥- ومنهم من جعل أولية ما قال جابر فيما نـــزل بسبب وهو ارتعاده صلى الله عليه وسلم وما قالته عائشة فيما نـــزل بغير سبب.

والتحقـــيق أن فهـــم جابر بن عبد الله رضي الله عنهما من هذا الحديث الســـابق أن صدر سورة المدثر أول ما نـــزل من القرآن على الإطلاق، وأنه لم يـــنـــزل على النبي صلى الله عليه وسلم وحي بالقرآن قبل هذا النجم قط، ولا حتى بصدر سورة العلق (اقرأ) وأصر جابر على هذا الفهم حين راجعه أبو سلمة ابن عبد الرحمن باحتمال أن الأولية لصدر سورة العلق، والمحققون من أهل العلم لا يقولون بصحة هذا الفهم من جابر بن عبد الله لما حدث به رسول الله صلى الله علـــيه وسلم لمخالفة حديث عائشة، وهو صريح في أن الأولية المطلقة لـــ (اقـــرأ) ومن المتقرر لدى الأصوليين أن النص يقدم على الاجتهاد المعارض له، وأنه لا اجتهاد مع النص.

وهناك قولان آخران في أول ما نـــزل:

قول ثالث: يقول: سورة الفاتحة.

ورابع يقول: البسملة، وقد ضربنا صفحاً عن ذكرهما بالتفصيل لضعفهما من جهة ومخالفتهما لما هو أصح منهما سنداً ومتناً من جهة أخرى.

ثانياً: آخر ما نـــزل من على الإطلاق:

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نـــزل من القرآن على الإطلاق، واستند كل منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان هذا من دواعي الاشتباه وكثرة الخلاف على أقوال شتى:

الأول: إن آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[1].

أخرجه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس، وكذلك أخرج ابن أبي حاتم قال آخر ما نزل من القرآن كله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وعاش النبي بعد نزولها تسع ليال، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول.

الثاني: إن آخر ما نزل آية الدين في سورة البقرة وهي قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

الثالث: إن آخر ما نزل هو قول الله تعالى في سورة البقرة آنفاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3].

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بما قاله السيوطي رحمه الله من أن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة لأنها في قصة واحدة فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ما نزل وذلك صحيح، واعلم أنه ما من قول قيل في آخر ما نزل إلا عورض بقول آخر مما يؤكد أن هذه الأقوال بنيت على الاجتهاد وليس فيها توقيف صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) البقرة: ٢٨١.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) البقرة: ٢٧٨.

سابعاً نزول القرآن على سبعة أحرف

لا يخفى أن للعرب لهجات مختلفة اكتسبوا بعضها من فطرتهم وبعضها الآخر من جيرانهم ، وأن لسان قريش كانت له الصدارة لمكانتهم الدينية باعتبارهم أهل الحرم، ولمكانتهم التجارية كذلك، وربما اقتبس القرشيون بعض الكلمات واللهجات التي كانت تروق لهم من غيرهم، وقد تنزل القرآن الكريم ابتداء بلسان قريش وأمر نبينا صلى الله عليه وسلم بأن يقرئ أمته القرآن على ذلك، فلم يزل يضرع إلى ربه ويستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف كلها شاف كاف.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه"(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اقرأني جبريل على حرف راجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"(٢).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة – أي غدير – بني غفار قال: فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتي لا تطيق ذلك ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين،

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

فقـــال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاء الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا"[1].

والأحاديـــث في هـــذا مستفيضـــة ذكر السيوطي أنها رويت عن واحد وعشرين صحابياً، ونص بعض أهل العلم على تواترها.

واختلفوا في المراد بالأحرف السبعة على أقوال، أشير إلى أهمها:

١- إن هذا الحديث مشكل، لأن الحرف مشترك بين حرف الهجاء، وبين الكلمة فيقال لها: حرف، وبين المعنى فيقال له حرف، وبين الجهة التي يطلق عليها الحرف أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[2]. وقد سبق أن المشكل يمكن التعرف على المراد منه بعد التأمل، ولا يعني إشكاله التوقف فيه، ولما كان القرآن يزيد على سبعة أحرف وكلمات، ومعاني تعين إشكاله التوقف فيه، ولما كان القرآن يزيد على سبعة أحرف وكلمات، ومعاني تعني أن يراد بالحرف الجهة، ولكن ما هي؟

٢- عـــدد السبعة لا يراد به الحصر، وإنما يراد به التكثير في الآحاد، كما أن الســـبعين في العشـــرات والسبعمائة في المئات قد يراد بها التكثير كذلك، فيجوز أن تكون الأحرف ستة أو عشرة، ويرد هذا القول ما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يزل يستزيد جبريل حتى انتهى معه إلى سبعة

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الحج: ١١.

أحرف، و لم يزد على ذلك، فحقيقة السبعة مرادة.

٣- المراد بالأحرف القراءات، ويرد بأن في بعض كلمات القرآن تقل القراءات عن سبع، وفي بعضها زيادة على السبع.

٤- قال ابن قتيبة: المراد بها الأوجه التي يقع بها التغاير:

فأولها: ما يتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل: ﴿**وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ**﴾[1] بالفتح والضم.

ثانيها: ما يتغير بالفعل مثل (بعد، وباعد) بلفظ الطلب والماضي.

ثالثها: ما يتغير باللفظ مثل (ننشزها، وننشرها).

رابعاً: ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل: (طلح منضود، وطلع).

خامساً: ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ**﴾[2] وسكرة الحق بالموت.

سادساً: ما يتغير بزيادة أو نقصان مثل: ﴿ **والذَّكَرَ وَالْأُنْثَى** ﴾، ﴿**وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى**﴾[3].

سابعاً: ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل: كالعهن المنفوش وكالصوف المنفوش.

فأنت ترى ابن قتيبة لاحظ في الوجه الأول حركة الفعل، وفي الوجه الثاني لاحظ الصيغة، وفي الوجه الثالث لاحظ الإهمال والإعجام.

وقد لوحظ على ما قال أنه لم يستوعب كل أوجه القراءات من إدغام

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) ق: ١٩.

(٣) الليل: ٣.

وإظهار وإمالة وغير ذلك.

٥- إن المـــراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد، على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير عن معنى من المعاني يأتي القرآن منـــزلاً بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد أو أكثر.

٦- الأحرف السبعة لغات سبع متفرقة في القرآن الكريم كله، وليس معناه أن المعـــنى الواحـــد قد يجئ على بسبع لهجات كالرأي السابق، بل معناه أن كلمة قد تجئ بلغة، وأخرى تجئ بلغة أخرى حتى ينتهي إلى سبع، فهو في جملته لا يخرج عن سبع لغات هي أفصح لغاتهم، فأكثره بلغة قريش، ومنه بلغة هذيل، أو ثقيف، أو هوازن، أو كنانة، أو تميم، أو اليمن.

واســـتدل أصـــحاب هذا الرأي بأن ابن عباس رضي الله عنهما لم يفهم ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]، حتى سمع المتخاصمان يقول أحدهما عن البئر: أنـــا فطرتها، ولم يفهم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[2]، حتى قالت بنت ذي يزن: تعالى أفاتحك، وعمر لم يفهم: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[3]، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾[4].

وقد نوقش أصحاب هذا القول بما يأتي:

أ- إن ذلك لم يؤد إلى التيسير المطلوب، بل يجعل القرآن أبعاضاً مختلفة.

ب- لو كان هذا الرأي صحيحاً، فكيف اختلف الصحابة في لفظ واحد؟

---

(١) فاطر: ١.

(٢) الأعراف: ٨٩.

(٣) عبس: ٣١.

(٤) النحل: ٤٧.

ج- ما استندوا إليه من أن في القرآن أحرفاً بغير لغة قريش، يحتمل أن يكون قد تخيرها قريش، أو توافقت مع لغتها كما سبق.

د- عدم فهم ابن عباس وعمر، لأنه لا يمكن لإنسان أن يحيط بلغته.

وبعد فأعلم أن من الأصول المقررة في النـــزول على سبعة أحرف:

١- التيسير على الأمة.

٢- الاختلاف في الألفاظ لا في المعاني.

٣- القراءات توقيفية كما نـــزلت.

٤- الأمـــة مخـــيرة في أي حرف تقرأ كما ورد في الحديث: "فاقرأوا بأي حرف شئتم".

٥- التوسعة كانت بعد الهجرة وشيوع الإسلام.

٦- التوسعة مظهر من مظاهر النعمة لا الفرقة.

٧- حرص الصحابة على القرآن وشدة إنكارهم لما لم يعلموا، فلما علموا زال الشك، وقد سمع عمر من هشام بن حكيم آية من سورة الفرقان، فأنكـــر قراءته لها حتى احتكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأقر كلا منهما على قراءاته، وقال لكل واحد: (هكذا أنـــزلت).

والـــذي نميل إليه أن القرآن نـــزل أولاً على حرف واحد، ثم بعد ذلك وصـــل إلى ســـبعة أحرف تيسيراً على الداخلين في الإسلام من ذوي اللهجات المختلفة، وأن الخلاف الواقع بين عمر وهشام كان مرتبطاً بتلقي كل منهما من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أقر كلا منهما على ما تلقاه وقرأ به.

فـــلا يصـــح أن تكـــون الأحرف السبعة مثاراً لخلاف بعيداً عن التلقي التوقـــيفي، إذ لا تعارض في المعاني بين الأحرف بعضها، ومثالاً على ذلك فإن

القـــراءات الصـــحيحة لا تضاد بين معانيها وإن اختلفت ألفاظها فمثلاً، مالك وملك، في كل منهما معنى بلاغي لا يناقض المعنى الآخر (مع العلم بأن الأحرف غير القراءات).

والأحرف السبعة على حقيقتها في العدد، وكان الترخيص بها بعد الهجرة، وأن الأمر بالقراءة بأحد الأحرف للتخيير.

ولعل الراجح في الأحرف السبعة أنها سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد لسبع قبائل من القبائل المشهورة، التي يرجع إليها كلام سائر القبائل أو أغلـــبها نحو: أقبل، وتعالى وهلم وعجل وأسرع فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد وإليه ذهب سفيان بن عيينة، وابن جرير، وابن وهب، وخلائق، ونسبه ابن عبد الـــبر لأكثر العلماء ويدل له ما جاء في حديث أبي بكرة : "أن جبريل قال : يا محمد، اقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، فقال: على حرفين، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال: كلها شاف كاف، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمـــة، أو آيـــة رحمة بآية عذاب، كقولك: هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل"[1].

قـــال ابن عبد البر: إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نـــزل القرآن علـــيها، وأنها معان متفق مفهومها، مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً بنفيه ويضاده، كالرحمة التي هي خلاف العذاب.

فجميع الخلافات التي في القرآن إما أن ترجع إلى الخلاف الحاصل من هذه اللغـــات السبع، أو ترجع إلى معنى آخر يأتي على اللغات السبع كما يأتي على

(١) أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٨٤٣ (٢/٤٩٩).

اللغة الواحدة، وهو أن تكمل القراءة معنى آخر كملك ومالك، وباعد وبعد.

وجميع الاختلافات ترجع إلى هذه الخلافات في حدود أن تختلف الألفاظ ويتحد المعنى، أو في حدود ألا يتضاد المعنى.

ومن المقطوع به أن القراءات السبع ليست عين الأحرف السبعة، وإنما هي بعض منها وأثر من آثارها، ولا نسلم بنسخ ستة أحرف في عهد عثمان، فالأحرف كلها باقية، والله أعلم بالصواب.

الخلاصة

القـــرآن الذي نـــزل به جبريل وألقاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو اللفظ والمعنى معاً، ولا عبرة لمن قال بخلاف ذلك من أهل الزيغ والابتداع.

للقرآن ثلاثة تنـــزلات وهي:

التنـــزل الأول: إلى اللوح المحفوظ.

التنـــزل الثاني: إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

التـــنـــزل الثالـــث: بواسطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي صلى الله عليه وسلم .

الحكمة في إنـــزاله جملة واحدة إلى السماء الدنيا:

١- تفخيم أمره وأمر من أنـــزل عليه.

٢- في تعـــدد النـــزول وأماكنه مبالغة في نفي الشك عن القرآن وزيادة للإيمان والثقة به.

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن الكريم:

كـــان إنـــــزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم منجماً متفرقاً من بعثته إلى قرب وفاته، ومن الحكم في ذلك ما يأتي:

١- تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم وتقويته.

٢- التدرج في تربية الأمة الناشئة علماً وعملاً.

٣- مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها وتفرقها.

٤- الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده.

قصة بدء الوحي التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما تتناقض مناقضة صريحة مع الفرض الكاذب القائل بأن الوحي ليس إلا شعوراً نفسياً أو إشراقاً روحياً أو إلهاماً داخلياً.

أنواع الوحي:

١- التكليم. ٢- الإلهام.

٣- الرؤيا المنامية. ٤- الوحي بواسطة الملك.

كيفية الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كيفيتان بهما كان نزول القرآن	من غير القرآن
١- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليه.	١- النفث في الروع
٢- أن يأتيه الملك في صورة رجل وهي أهون من الأولى.	٢- الرؤيا المنامية.
	٣- كلام الله المباشر له بكفيفة لا نعلمها

أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق:

صدر سورة العلق وهو الصحيح الذي عليه الجمهور.

آخر ما نزل على الإطلاق وردت آثار بأنه آية:

(البقرة: ٢٨١)، أو (البقرة : ٢٨٢)، أو (البقرة: ٢٨٧) ولعل هذه الآيات نزلت دفعة واحدة فأخبر كل عن بعضها بأنه آخر ما نزل.

أنزل القرآن الكريم على سبعة أحرف كلها شاف كاف، واختلف في المراد بالأحرف السبعة على أقوال، والراجح أن المراد بها سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد نحو: أقبل، هلم، وتعالى، وعجل، وأسرع.

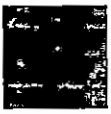

أسئلة التقويم الذاتي

١- كيف تدفع الشبهة القائلة بأن نزول القرآن كان بالمعنى وأن لفظ من عند النبي ﷺ؟

٢- وضح الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي.

٣- شرف الله القرآن بأن جعل له ثلاثة تنـــزلات ، اشرح ذلك موضحاً الحكمة التي نتلمسها من ذلك.

٤- ما الحكم والأسرار التي نتلمسها في تنجيم القرآن الكريم؟

٥- ما هو معنى الوحي لغة، وما هي أنواعه؟

٦- وضـــح فهمك لحقيقة الوحي من خلال قصة بدء الوحي التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما.

٧- هناك افتراء يقول إن الوحي ليس إلا شعوراً نفسياً أو إشراقاً روحياً، أو إلهاماً داخلياً كيف تدحض هذه الافتراءات؟

٨- لماذا كان الوحي ينـــزل عليه ﷺ وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملك منهم أحد سواه؟

٩- للوحـــي كيفيات منها ما كان به نزول القرآن ومنها غير ذلك، وضح ذلك كما درسته.

١٠- اذكر أول ما نـــزل من القرآن على الإطلاق، موضحاً للرأي الراجح مناقشاً للآراء المرجوحة.

١١- ما الفوائد المتعلقة بدراسة أول ما نـــزل وآخر ما نـــزل من القرآن الكريم؟

١٢- وضح المراد بالأحرف السبع التي نـــزل بها القرآن في وجهة نظر الكاتب.

أسباب النزول

الأهداف الخاصة

يتوقع منك – عزيزي الدارس – بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على معرفة ما يلي:

١- معنى سبب النزول.

٢- فوائد معرفة أسباب النزول.

٣- طريقة معرفة سبب النزول.

٤- كيفية التعبير عن سبب النزول.

٥- حالة تعدد أسباب النزول والنازل واحد.

٦- حالة تعدد النازل من الآيات والسبب واحد.

٧- قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والرد على ما يثار حولها من الشبهات.

المقدمة

القرآن الكريم قسمان:

- قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق، وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان.

- قسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة، وهو موضوع بحثنا الآن، غير أنا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التي جاءت على أسباب، فذلك شأو بعيد، وقد أفرده جماعة بالتأليف، منهم: علي بن المديني شيخ البخاري، ومنهم الواحدي، وابن حجر، والسيوطي الذي وضع فيه كتاباً حافلاً محرراً سماه (لباب النقول في أسباب النزول).

أولاً معنى سبب النزول

سبب النزول: هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه، والمعنى أن حادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أو سؤال وجه إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب هذا السؤال، سواء أكانت تلك الحادثة خصومة دبت، كالخلاف الذي شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج، بدسيسة من اليهود حتى تنادوا: السلاح السلاح، ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة في سورة آل عمران من أول قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[1]، إلى آيات أخرى بعدها هي أبلغ ما يكون في التنفير من الانقسام والانشقاق والترغيب في المحبة والوحدة والاتفاق، أمَّ كانت تلك الحادثة خطأ بينا ارتكب، كذلك السكران الذي أم الناس في صلاته وهو في نشوته، ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال الآية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[2]، بحذف (لا) من لا أعبد، فنزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[3].

أو كانت تلك الحادثة تمنياً من التمنيات، ورغبة من الرغبات، كموافقات

(١) آل عمران: ١٠٠

(٢) الكافرون: ١، ٢.

(٣) النساء: ٤٣.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، التي أفردها بعضهم بالتأليف، ومن أمثلتها ما أخرجه البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر: "وافقت ربي في ثلاث قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1]، وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر،، فلو أمرتهن أن يتحجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك. أ.هـ.

والمراد بقول (أيام وقوعه) الوارد في تعريف سبب النزول، الظروف التي يتنزل القرآن فيها متحدثاً عن السبب، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة، أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم، كما حدث ذلك حين سألت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فقال صلى الله عليه وسلم غداً أخبركم، و لم يقل إلا أن يشاء الله، فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً على ما رواه ابن إسحاق، وقيل ثلاثة أيام، وقيل أربعين يوماً، حتى شق عليه ذلك، ثم نزلت أجوبة هذه الأسئلة، وفي طيها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشيئة، ويقول له في سورة الكهف: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾[2].

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) الكهف: ٢٣، ٢٤.

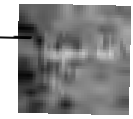

فوائد معرفة أسباب النزول

زعم قوم أن الاشتغال بمعرفة أسباب النزول لا طائل تحته، لأنه بحث تاريخي، وهذا خطأ بين، فإن معرفة الظروف والمقتضى تعين على فهم المعنى فالنص إذا ورد عقيب واقعة أو سؤال علم أنه سيق ابتداء من أجل ذلك، كان نصاً بيناً فيما نزل فيه، وفوق ذلك فإن لأسباب النزول فوائد متعددة لا فائدة واحدة، منها:

١- معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل:

وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن، وذلك لأن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها، أما المؤمن فيزداد إيماناً على إيمانه، ويحرص على الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه، لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام، ومن أجلها جاء هذا التنزيل، وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم والعلل إلى الإيمان إن كان منصفاً حين يعلم أن التشريع مبني على رعاية المصلحة العائدة إلى الإنسان، وأفعال الله عز وجل ومنها أحكامه مبنية على رعاية المصالح في العاجل والآجل.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ﴾[1]، فظاهر هذا أن الخطاب لكل من يصلح له الخطاب فيدخل فيه المسلمون، فإذا عرف السبب الذي من أجله نزلت الآية، تبين أن المسلمين لم يرتابوا وأن التحدي كان للمشركين ولليهود حيث قالوا هذا الذي يأتينا به

(١) البقرة: ٢٣.

محمـــد صلى الله عليه وسلم لا يشبه الوحي و ﴿إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ فعلم أن التحدي لم يكن للمؤمنين بل كان للمغترين المرتابين فيما نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والحكمة التي اقتضت التحدي هي الارتياب فمن لم يرتب بل آمن وأسلم فإن تحديه غير مستساغ.

٢- الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: معرفة سبب نزول الآية يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، فمثلاً: حكى عن عثمان بن مظعون وعمرو معدي يكرب أنهما كان يقولان: الخمر مباحة، ويحتجان بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾[1].

ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك وهو أنا ناساً قالوا لم حرمت الخمر؟ كيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس؟ فنزلت الآية (أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما).

ومعنى ذلك أن الحكم لا ينسحب إلا على الحي المكلف، فمن مات قبل الـــتحريم أو عاش إلى ما بعد التحريم، لكنه مات قبل العلم بالتحريم، فهو غير داخل في الحكم.

والآن أصبح العلم بتحريم الخمر أمرٌ معلوماً من الدين بالضرورة فلا عذر لجاهل بهذا التحريم.

قـــال ابن دقيق العيد: معرفة بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القـــرآن، وانظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ

---

(١) المائدة: ٩٣.

إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾[1]. ظاهره أن العدة لا تكون أشهراً إلا لمن ارتاب، فإذا علم السبب فهم المعنى الصحيح، وذلك أنه لما نزلت الآية في سورة البقرة في عدة النساء بقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾[2]، قال قوم: قد بقي عدد من عدد لم يذكرن: الصغار والكبار، فنزلت الآية ﴿واللائي يئسن﴾[3]، فعلم بذلك أن الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن في العدة، وارتاب هل عليهن عدة أو لا، وهل عدتهن كاللائي في سورة البقرة أو لا؟ فمعنى إن ارتبتم: إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدون فهذا حكمهن، أي الصغار، واللائي يئسن.

ومن ذلك ما أشكل على عروة بن الزبير مع معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[4]، فإن ظاهر الآية الكريمة يشير إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة حتى قال "عروة بن الزبير" لخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: يا خالة إن الله تعالى يقول: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فأرى أنه لا بأس على الإنسان أن يترك السعي بينهما؟! فقالت عائشة: "بئس ما قلت يا ابن أختي، لو كان الأمر كما ذكرت لقال الله تعالى : فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ثم أخبرته بأن الناس في الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة وكانوا يحجون في سعيهم (لصنمين) أحدهما على الصفا ويسمى (إسافاً) والثاني على

(١) الطلاق: ٤.

(٢) البقرة: ٢٢٨.

(٣) أخرجه الحاكم عن أبي.

(٤) البقرة: ١٥٨.

المـــروة ويسمى (نائلة)، فلما دخل الناس في الإسلام تحرج بعض الصحابة من الســـعي بينهما خشية أن يلتبس الأمر بعبادة الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة تدفع عـــنهم الإثم والحرج وتوجب عليهم السعي لله تعالى، لا للأصنام"، فقد ردت عائشة على عروة فهمه وكان ذلك سبب النزول.

ومـــن ذلـــك قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1]، فإنا لو تركنا ومدلول و اللفظ لاقتضى ذلك أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً وهو خلاف الإجماع، فلما علم سبب نزولها علم أنها في نافلة السفر، أو فـــيمن صلى بالاجتهاد وبان له الخطأ بعد فوات الوقت على اختلاف في ذلك، إلى غير ذلك من الأمثلة.

٣- دفع توهم الحصر:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[2].

ظاهـــر الآية يفيد حصر المحرمات في هذه الثلاثة على حين أن الأمر ليس كذلـــك قال الإمام الشافعي: إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حـــلال إلا مـــا حرمتموه، ولا حرام إلا ما احللتموه نازلاً منزلة من يقول : لا تـــأكل اليوم حلاوة، تقول: لا آكل اليوم إلا حلاوة، والغرض المضادة لا النفي ولا الإثـــبات على الحقيقة، فكأنه تعالى قال: لا حرام إلا ما أحللتموه في الميتة،

(١) البقرة: ١١٥.

(٢) الأنعام: ١٤٥.

والـــدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه: إذ القصد إثـــبات التحريم، لا إثبات الحل، قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن، ولولا ســـبق الشـــافعي إلى ذلك لما كانا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية.

٤- تخصـــيص الحكم بالسبب، عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ:

فمثلاً قد استشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى: ﴿**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[1] الآية، قال: ولئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعين! حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغير وأروه أنهم أخبروه ما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه"[2]، وعليه فإن التهديد بالعذاب خاص بمن يكتم الحق ويستبدل به الباطل، لا في كل من يفرح بما آتاه الله.

٥- معـــرفة أن ســـبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها[3]:

وذلـــك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باق قطعاً فيكون التخصيص قاصـــراً عـــلى ســـواه، فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما خرج

---

(١) آل عمران: ١٨٨.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) إذ أن المخصص يخرج غيره من الحكم إلا سبب نزول الحكم.

بالتخصيص مع أنه لا يجوز إخراجه قطعاً للإجماع المذكور.

ولهذا يقول الغزالي في المستصفى: "ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص بالاجتهاد"، غلط أبو حنيفة في إخراج الأمَة المستفرشة من قوله صلى الله عليه وسلم "الولد للفراش" والخبر إنما ورد في وليدة زمعة إذ قال عبد بن زمعة: هو أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه، فقال عليه الصلاة والسلام: "الولد للفراش وللعاهر الحجر" فأثبت للأمة فراشاً، وأبو حنيفة لم يبلغه السبب فأخرج الأمة من العموم".

٦- معرفة سبب النزول بين المبهم وتسمى المهمل:

فمثلاً زعم مروان أن الذي نزلت فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾، عبد الرحمن بن أبي بكر، فردت عائشة وقالت: "والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته"، وأصل القصة كما رواه البخاري في الصحيح أن مروان كان عاملاً على المدينة، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد فكتب إلى مروان بذلك، فجمع مروان الناس فخطبهم، فذكر يزيد ودعا إلى بيعته، وقال: إن أمير المؤمنين أراه الله في يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: ما هي إلا هرقلية (يعني أنها استبداد بالملك كعمل ملوك الروم) فقال مروان: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: هرقلية، إن أبا بكر ما جعلها في أحد من ولده ولا في أهل بيته، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده، فقال مروان: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾[1]، فقالت عائشة من وراء الحجاب: "ما أنزل الله فينا

(١) الأحقاف: ١٧.

شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري (براءتي) ولو شئت أن أسمي من نزلت فيه لسميته"[1].

فلم تفصح السيدة عائشة عن الذي نزلت فيه الآية تأدباً فإن الله لم يسمه، ولكـــن جاء بالموصول الذي هو أعم من فرد معين، بناء على أن الصلة هي علة الحكم فهي في كل من أهان والديه وأنكر البعث.

٧- تيسير الحفظ وتسهيل الفهم:

وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن.

(١) صحيح البخاري.

ثالثاً طريق معرفة سبب النزول

لا طــريق لمعرفة سبب النزول إلا النقل الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أحد من أصحابه، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأي بل يكون له حكم المرفوع، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صــلى الله عليه وسلم "من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[1]، ومــن الكذب عليه صلى الله عليه وسلم بل وعلى الله عز وجل أن يدعي سبباً للنزول وليس بسبب، لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا عن طريق الوحي المعصوم.

ومن هنا لا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التــنــزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب كما قال الواحدي رحمه الله، ولهذا كان نهج علماء السلف رحمهم الله التورع عن القول في شــيء من ذلك بغير تثبت، يقول محمد بن سيرين: سألت عبيدة (ابن عمر السـلماني) عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن.

فــالقول في أســباب الــنزول ليس محلاً للاجتهاد والرأي، بل هو مأثور منقول، لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه، إذ هو أعلم بمواضع الاجتهاد والرأي، وأكثر تميزاً للمأثور غن الرأي.

أما إذا روى سبب النزول بحديث مرسل – أي سقط من سنده الصحابي وانــتهى إلى الــتابعي – فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا صح واعتضد بمرسل آخر وكــان الراوي له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة، كمجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير.

(١) رواه البخاري.

رابعاً التعبير عن سبب النزول

تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول:

فـتارة يصـرح فيها بلفظ السبب فيقال: "سبب نزول الآية كذا" وهذه العبارة نص في السببية لا تحتمل غيرها، لكنها نادرة الوقوع، فقلما تجد صحابياً يصرح فيقول: سبب نزول الآية كذا.

وتارة لا يصرح بلفظ السبب ولكن يؤتي بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقـب سرد حادثة، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضاً. ومن الأمثلة على ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1]، خرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهـتف: "يا صباحاه، فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يـدي عذاب شديد" فقال أبو لهب: تباً لك إنما جمعتنا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2].

وأحـياناً يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم فيوحي إليه، ويجيب بما نزل عليه، ولا يكون التعبير بسبب النزول ولا بتلك الفاء، ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشـي مع النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع

(١) الشعراء: ٢٢٤.

(٢) المسد: ١.

رأسه فعرفت أنه يوحي إليه حتى صعد الوحي ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾[1].

وكما كان في قصة خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت فذهبت تشتكي من ذلك، فعن عائشة قال: "تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، وإني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني! اللهم إني أشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[2]، وهو أوس بن الصامت، وحكم هذه الرواية حكم ما هو نص في السببية.

أما حين لا يذكر سبب ولا فاء ولا سؤال ويقول: نزلت في كذا أو أحسب هذه الآية نزلت في كذا، أو ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا فليس نصاً على السببية، بل يحتملها ويحتمل أمراً آخر وهو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام، والقرائن وحدها هي التي تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه، ومثال الصيغة الأولى ما روى عن ابن عمر أنه قال: أنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾[3]، في إتيان النساء في أدبارهن، ومثال الصيغة الثانية ما رواه عبد الله بن الزبير من مخاصمة الزبير رجلاً من الأنصار في شراج الحرة، وفي نهاية القصة يقول: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) المجادلة : ١.

(٣) البقرة: ٢٢٣.

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1].

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد إحداهما نص في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصاً في السببية لنزول تلك الآية والآيات فإننا نأخذ في السببية عما هو نص، وتحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية، وذلك لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل على ما هو مقرر عقلاً ونقلاً.

مثال ذلك: ما أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: كانت اليهود تقول: "من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول" فأنزل الله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال أنزلت: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ في إتيان النساء في أدبارهن.

فالمعول عليه في بيان السبب هي رواية جابر الأولى لأن فيها ذكر الفاء وهي إنماء إلى السببية، وأما رواية ابن عمر فهي بيان لأنه قال فيها: أنزلت، فأنت ترى أن سبب نزول الآية دعوى اليهود تشويه المولود إن أتاها في قبلها من الخلف، وتلك دعوى باطلة لقوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

فتسمية ذلك حرثاً يحدد الموضع الطبيعي من المرأة وهو القبل، أما إتيانها في الدبر فحرام، لأنه موضع أذى كالحيض المنهي عنه لما فيه من الأذى قال تعالى:

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) البقرة: ٢٢٣.

﴿وَيَسْـــأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾[1]، فقد حرم الإتيان أثناء الحيض لعلة الأذى ثم قال: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ فكأنه قال تؤتي المرأة أحياناً من أجل طلب الولد فثبت ذلك رواية ابن عمر.

وأما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات ليس شيء منها نصاً كـــأن يقـــول بعض المفسرين نزلت هذه الآية في كذا، ويقول الآخر نزلت في كـــذا، (ثم يذكر شيئاً آخر غير ما ذكره الأول) فإن الروايتين تحملان على بيان المعنى لا على ذكر السببية ويكون هذا من التفسير بالرأي.

(١) البقرة: ٢٢٢.

خامساً تعدد الأسباب والنازل واحد

إذا تعـددت الأسباب والنازل واحد فلا يخلو الحال من صورة من هذه الصور:

الصورة الأولى:

أن تكـون إحدى الروايتين صحيحة والأخرى غير صحيحة: ففي هذه الحال تلغى غير الصحيحة.

مـثال ذلك: ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي صـلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة قالت: يا محمد ما أرى شـيطانك إلا قـد تـركك فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[1]، فهذه الرواية فيها إيماء إلى السبب ورويت في الصـحيحين فكانـت أرجح من رواية الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها، وكانت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جرو (كلـب) دخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل تحت السرير فمات ، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة مـا حدث في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا يأتيني؟ فقلت في نفسـي: لـو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجـرو، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فأنزل الله ﴿ وَالضُّحَى﴾ إلى قوله: ﴿فترضى﴾.

(١) الضحى: ١-٣.

فهـــا أنت - عزيزي الدارس - ترى أن رواية الطبراني وابن أبي شيبة أقل مـــن روايـــة الصحيحين، زيادة على ما فيها من علة قادحة، فإذا مات الجرو ومضـــت عليه أربعة أيام انبعثت منه رائحة كريهة يمكن بها أن تعرف، قال ابن حجـــر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما في الصحيحين.

الصورة الثانية:

وهي صحة الروايتين كلتيهما ولإحداهما مرجح فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة.

وقـــد يكـــون المرجح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى، أو أن يكون راوي إحداهما مشاهداً للقصة دون راوي الأخرى.

مـــثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقـــال بعضـــهم: لو سألتموه فقالوا: حدثنا عن الروح؟ فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾[1].

ومـــا أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونـــا شـــيئاً نســـأل ذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح فسألوه فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، فهذا الخبر الثاني يدل على أنهما بمكة وأن سبب نـــزولها سؤال قريش إياه، أما الأول فصريح في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه، وهو أرجح لوجهين:

---

(١) الإسراء: ٨٥.

١- أنــه رواية البخاري، ومن المتقرر لدى المحدثين أن ما رواه البخاري أصح مما رواه غيره أعني رواية الترمذي في مقامنا هذا.

٢- أن راوي الخبر الأول هو ابن مسعود رضي الله عنه وكان مشاهداً للقصة من أولها إلى آخرها، كما تدل على ذلك الرواية الأولى بخلاف الخبر الثاني فــإن رواية ابن عباس لا تدل على أنه كان حاضراً للقصة، ولا ريب أن للمشــاهدة قوة في التحمل وفي الأداء وفي الاستيثاق ليست لغير المشاهدة ومن هنا أعمل علماء القرآن الرواية الأولى وأهملوا الثانية.

الصورة الثالثة:

وهي ما استوت فيه الروايتان في الصحة ولا مرجح لأحداهما، لكن يمكن الجمــع بيــنها بأن كلاً من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً، لــتقارب زمنيهما، فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب لأنه الظاهر ولا مانع يمنعه، قال الحافظ ابن حجر: لا مانع من تعدد الأسباب.

مثال ذلك: ما أخرجه من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قــذف امــرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك من سحماء، فقال النبي صــلى الله عليه وسلم: "البينة أو حد في ظهرك" فقال يا رسول الله، إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟!

وفي روايــة أنه قال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، وليترلن الله تعالى ما يــبرئ ظهري من الحد، فترل جبريل عليه السلام وأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُــمْ وَلَــمْ يَكُــنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ﴾ حتى بلغ : ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

---

(١) النور: ٦-٩.

وأخـــرج الشيخان (واللفظ للبخاري) عن سهل بن سعد أن عويمراً أتى عاصـــم بـــن عدي – وكان سيد بني عجلان – فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه؟! أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأتي عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله .. (وفي روايـــة مسلم) فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها، فقال عويمر: والله لا انتهى حتى أســـأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فجاءه عويمر فقال: يا رسول الله رجـــل وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعنها.

فهاتـــان الروايتان صحيحتان، ولا مرجح لأحداهما على الأخرى، ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانهما، على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بـــن أمـــية، ثم قفـــاه عويمر قبل إجابته، فسأل بواسطة عاصم مرة وبنفسه مرة أخرى، فأنزل الله الآية إجابة للحادثتين معاً، ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال أحداهما وإهمال الأخرى، إذا لا مانع يمنع من الأخذ بهما عـــلى ذلـــك الوجـــه، ولا يجوز أن نردهما معاً، لأنهما صحيحتان ولا تعارض بيـــنهما، ولا يجوز أيضاً أن نأخذ بواحدة ونرد الأخرى، لأن ذلك ترجيح بلا ترجح، فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معاً.

الصورة الرابعة:

وهـــي اســـتواء الروايتين في الصحة، دون مرجح لإحداهما ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب، فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار

النزول لأن فيه إعمالاً لكل رواية ولا مانع منه.

قال الزركشي في البرهان: وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه أ.هـ.

مثال ذلك: ما أخرجه البيهقي والبزار عن أبي هريرة أن النبي صلىَ الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال: "لأمثلن بسبعين منهم مكانك" فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[1]، إلى آخر السورة، وهن ثلاث آيات.

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعون وستون، ومن المهاجرين ستة، منهم حمزة فمثلوا به، فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنزيدن عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الآية.

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد، والثانية تفيد أنها نزلت في يوم فتح مكة، على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين، فبعد أن يكون نزول الآية كان مرة واحدة عقبيهما معاً، وإذن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها، مرة في أحد ومرة يوم الفتح، وقد ذهب بعض أهل العلم على أن سورة النحل كلها مكية، وعليه فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين في المدينة وتكون عدد مرات نزولها ثلاثاً، وبعضهم يقول: إن سورة النحل مكية ما عدا خواتيمها تلك فإنها مدينة، وعليه فعدد مرات نزولها ثنتان فقط.

---

(١) النحل: ١٢٦.

شبهة وجوابها:

قد استشكل البعض على تكرار النزول بأنه عبث ما دامت الآية قد نزلت قبل ذلك السبب الجديد، وحفظها الرسول صلى الله عليه وسلم واستظهرها الحفاظ من الصحابة، ويمكن الرجوع إليها من غير حاجة إلى نزولها مرة أخرى.

والجواب: أن هناك حكمة غالية في هذا التكرار وهي تنبيه الله لعباده، ولفت نظرهم إلى ما في تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة والفوائد الجمة التي هم في أشد الحاجة إليها، فخواتيم سورة النحل التي معنا مثلاً، نلاحظ أن الحكمة من تكرارها هي تنبيه الله لعباده أن يحرصوا على العمل بما احتوته من الإرشادات السامية في تحرى العدالة، وضبط النفس عند الغضب، ومراقبة الخالق حتى في القصاص من الخلق، والتذرع بالصبر والثبات، والاعتماد على الله والثقة بتأييده ونصره لكل من اتقاه وأحسن في عمله.

أضف إلى ذلك ما ذكره الزركشي آنفاً من أن تكرار النزول تعظيم لشأن المكرر وتذكير به خوف نسيانه.

سادساً تعدد النازل والسبب واحد

قــد يكون أمر واحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعددة (على عكس ما ســبق) ولا مــانع من ذلك لأنه لا ينافي الحكمة في إقناع الناس، وهداية الخلق وبيان الحق عند الحاجة، بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان.

مــثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل شــجرة فقــال: "إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وســلم فقــال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفــوا بــالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّــا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُــمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[1].

وأخــرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا: فأنزل الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُــمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ

(١) التوبة: ٧٤.

حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

والوجـــه الجامع بين النصين تسجيل الكذب على المنافقين لكن في النص الأول أنكروا قولهم، فكذبهم الله وأظهر ما قالوه ، وبين ما انتهوا إليه، ثم كشف عـــن خبايا نواياهم، وعن الدوافع لهم على مخالفة الله ورسوله، وفتح لهم باب التوبة، وبين لهم أنها تمحو ذنوبهم وإلا ثردوا في المصير المحتوم.

أما النص الثاني: فالحلف كذباً أمام الله يوم القيامة ظانين أن هذا ينجيهم، فكذبهم الله وبين ما كانوا عليه من اتباعهم للشيطان.

(1) المجادلة: ١٨، ١٩.

سابعاً العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

اتفــق أغلب الأصوليين والفقهاء على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السـبب، وأن ورود اللفــظ العام على مناسبة خاصة لا يعني اختصاص هذه المناسبة بالحكم، بل يتعدى الحكم منها إلى ما ماثلها، فورود آية الظهار في أوس ابن الصامت أو سلمة بن صخر لا يعني اختصاصهما وحدهما بحكم الظهار بل يتعدى الحكم إلى كل من ظاهر مثلهما، ونزول آيات اللعان في هلال بن أمية لا يعــني اختصاصه وحده بحكم اللعان، بل يتعدى ذلك إلى كل من لاعن مثله، ونزول حد القذف في رماة عائشة لا يغني اختصاصهم وحدهم بهذا الحكم بل يتعدى ذلك إلى كل من قذف مثلهم وهكذا، والقول باختصاص هذه الأحكام بهؤلاء الأعيان لا يجرؤ على مثله مسلم ولا عاقل لما يؤدي إليه من إبطال عموم الكتاب.

والقــول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو الحق الذي لا معدل عنه، وهــو الــذي يــتفق مــع عموم أحكام الشريعة، والذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها.

والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم، وإذا كان قد وجد من أهل العلم من قال: إن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفــظ فإنهم لم يقصدوا بذلك اختصاص عمومات الكتاب بأعيان الأشخاص الذيــن نزلست فيهم دون غيرهم، فإن هذا كما سبق لا يجترئ عليه مسلم غير مغلــوب عــلى عقله، وإنما غاية ما ذهبوا إليه أنها تختص بنوع ذلك الشخص

المعين فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً، فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو بذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: من يرى أن العبرة بخصوص السبب يريد بذلك أن من نزلت فيه الآية دخولاً أولياً ودخل ما يشبهه تبعاً، ولا يتصور من مسلم إبطال عموم الكتاب.

وهذا توجيه حسن ويكون الفرق بين من يقول: العبرة بعموم اللفظ، وبين من يقول: العبرة بخصوص السبب أن الأولين يرون الدخول بعموم اللفظ أصلاً والآخرين يرون الدخول تبعاً، بعد دخول صورة السبب.

شبهة على قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

بادئ ذي بدء لا يخفى أن القرآن الكريم هو الوحي الإلهي الخاتم، وأنه محفوظ بحفظ الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. وهو الحجة على الناس والمعجزة المتحدية دائماً وأبداً، وهو نور الله المحفوظ لا حفظاً متحفياً، إنما حفظ كمال وتمام وعمل بهذا القرآن المحفوظ.

لكن بعض أدعياء العلم في هذه الأيام من دعاة التغريب والعلمانية يريدون أن يستبدلوا بميزان الرواية والسند وقواعد الأصول والحديث وشروطه طريقة الإستنتاج الشخصي، وميزان الرضا النفسي، ومنهج التوسم الذي لا يضبطه شيء إلا دوافع الرغبة وكوامن الأغراض والمذاهب التي يضمرونها.

واعتماداً على هذه الطريقة أخذوا يدعون أن كل آيات القرآن لها أسباب نزول وأن هذه الأسباب التي تجاوزها التطور والواقع والتاريخ هي (علة) تشريع

(١) الحجر: ٩.

هذه الأحكام، وهي (الواقع) الذي صنع النص القرآني أو استدعاء، وأن (حياة) الأحكام قد انقضت بانقضاء الأسباب التي سببتها.

يبدأ هؤلاء فريستهم هذه بالحكم على كل أحكام التشريع في القرآن (بالنسبية) فينفون عنها (الإطلاق) "فأحكام التشريع في القرآن ليست مطلقة، بل أن كل آية تتعلق بحادثة بذاتها، فهي مخصصة بسبب التنزيل، وليست مطلقة".

وما دامت مخصصة – أي الآيات القرآنية – بأسباب نزولها، وقد طوى التاريخ الوقائع والأحداث التي كانت سبباً في النزول، فإن طي صفحات الأحكام أي المسببات حتمي لارتباطه بذهاب (الأسباب) في النزول.

فإن من المتقرر في أصول الفقه أن الأحكام تدور مع عللها وجوداً وعدماً، وبالتالي لم يعد القرآن مصدراً للأحكام التشريعية بعد زوالها بزوال الأسباب التي تعلقت واختصت بها.

ولقد رفض هؤلاء القاعدة التي اتفقت عليها الأمة والتي سبقت في العنوان الفائت من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب قائلين: إنه منهج فقهي، وليس منهجاً شرعياً، أي أنه منهج قال به الفقهاء، و لم يرد لا في القرآن، ولا في السنة النبوية، بل لم يقل به أحد من الصحابة ولا التابعين الأوائل، ويتأدى هذا المنهج الفقهي في أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

هذه هي الشبهة القائمة في رؤوس هؤلاء الكتاب ومن على شاكلتهم ممن لم يدرسوا أصول الشريعة الإسلامية.

والجواب عن هذه الشبهة أن نسأل:

١- هل الآيات التي نزلت لأسباب خاصة قد وقف حكمها عند حدود

مـــن نزلـــت فـــيهم من الصحابة و لم تتجاوزهم إلى غيرهم من بقية الصحابة الأجـــلاء؟ خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[1].

وهـــي قد نزلت في رجل عزم على أن يطلق امرأته، حتى إذا اقتربت نهاية عدتهـــا راجعها، ثم عاود الطلاق والمراجعة، وذلك حتى يحبسها، فلا تبين منه، ولا يأتيها.

أهـــذه الآية تشريع عام لعموم الألفاظ التي تفهم في ضوء سبب النزول أم أنها كانت خاصة بالرجل والمرأة اللذين نزلت فيهما؟

قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِـــنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2]. وهذه الآية قد نزلت في قتيلة بنت عبد العزى – وكانت مشركة – قدمت على ابنتها أسمـــاء بنت أبي بكر، فلم تقبل أسماء هداياها و لم تدخلها منزلها، فسألت عائشة الـــنبي صـــلى الله علـــيه وسلم عن ذلك فتلا الآية: فأدخلتها منزلتها، وقبلت هداياها.

أفحكـــم هذه الآية خاص بسبب نزولها؟ وبمن نزلت فيهم؟ أم أنها تشريع عام للعلاقة بغير المسلمين طوائف وأمما ودولاً؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِـــنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) البقرة: ٢٢٩.

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣) البقرة: ٢٣٠.

وهـي قـد نزلت في عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك طلقها رفاعة بن وهـب فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير القرظي فطلقها قبل أن يمسها، وسألت النبي أن ترجع إلى رفاعة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: لا حتى يمس.

أهذه الآية خاصة بمن نزلت فيهم؟ أم هي تشريع عام بعموم ألفاظ الآية؟

إلى غـير ذلك من عشرات الآيات التي نزلت على أسباب خاصة وبقي حكمهـا عاماً على سائر المسلمين، أفيقبل الادعاء بأن هذه الآيات خاصة بمن نزلـت فـيهم؟ وبأن أحكامها ليست عامة ولا مطلقة؟ هل هذا قول معقول؟ الجواب واضح كل الوضوح.

٢- إن أسـباب الـنزول ليست منشئة للآيات ولا هي العلة في تشريع الأحكـام، وإنا هي مناسبات للنزول تساعد – كطريق من طرق عدة – على فهم الآيات على ما سبق بيانه في فوائد أسباب النزول.

فالسـؤال عـن الأهلة أو الخمر أو الروح، ليس هو المنشئ للآيات، ولا للأحكـام الـواردة فيها، وإنما هو مقارن للوحي بالآيات المعبرة عن سنن الله وأحكامـه في هـذه الآيات: الأهلة، الخمر، المواقيت، وهذا عكس التصورات الإنسانية التي ينشئها الواقع ويحدد لها المضامين.

وحسـب النص القرآني في سبب النزول والاعتقاد أنه المنشئ للنص منهج مادي ماركسي يجعل النص ثمرة للواقع، وتابعاً له، ومعاملا به، وجوداً وعدماً!.

فالوقـائع (مناسـبات النزول) و(ظرف الزمان) الذي نزلت فيه الآيات، فالعلاقة بينهما لا تعدو الاقتران، ولا تدخل أبداً في باب العلة والمعلول.

وقد عرف السيوطي رحمه الله سبب النزول فقال: والذي يتحرر في سبب

النزول أنه: ما نزلت الآية أيام وقوعه.[1]

ثم يفصل السيوطي في بيان منهاج الصحابة والتابعين القائم على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لأن السبب ليس أكثر من الواقعة التي تضمنت الآية حكمها، واقترن نزولها بحدوثها، فيقول: "وقد نزلت آيات في أسباب واتفقوا - أي الصحابة والتابعون - على تعديتها إلى غير أسبابها، كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر، وآية اللعان في شأن هلال بن أمية، وحد القذف في رماة عائشة رضي الله عنها، ثم تعدى إلى غيرهم، ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة وهو شائع ذائع بينهم".

تلك هي حقائق منهج الصحابة والتابعين - بمن فيهم ابن عباس - في أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ لأن السبب مجرد واقعة اقترن حدوثها بنزول الآية والحكم، فحكم الواقعة يلتمس في الآية، والواقعة هي مناسبة نزول، وليست علة للنزول والأحكام.

فالصحابة والتابعون، وعلماء أسباب النزول، وغيرهم مجمعون ومجتمعون على منهاج "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، فلا عبرة بما يقوله أهل الزيغ من تلاميذ الاستشراق وصرعى الغزو الفكري!.

---

(١) الاتقان (١/ ٣١).

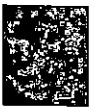

الخلاصة

١- القرآن الكريم قسمان:

قسم نزل من الله ابتداءًا غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق.

وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة وهو موضوع بحثنا في هذه الوحدة.

٢- سبب النزول:

هـو مـا نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم.

٣- فوائد معرفة أسباب النزول:

أ- معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن.

ب- الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال.

ج- دفع توهم الحصر.

د- معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها.

هـ- معرفة سبب النزول تبين المبهم وتسمي المهمل.

و- تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها.

٤- كيفية معرفة سبب النزول:

لا طريق لمعرفة سبب النزول إلا النقل الصحيح، فهو ليس محلاً للاجتهاد والرأي.

٥- **تختلف عبارة القوم في التعبير عن سبب النزول.**

أ- فتارة يصرح فيها بلفظ السبب.

ب- وتارة يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سردها حادثة.

ج- وأحياناً يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم فيوحي إليه ويجيب بما نزل عليه، وتفهم السببية من المقام.

٦- **حين لا يذكر سبب ولا فاء ولا سؤال ويقال:** نزلت الآية في كذا فليس هذا نصاً على السببية، بل هو تفسير إجمالي لما تضمنته الآية.

إذا وردت عبارتان في موضوع واحد إحداهما نص في السببية، والثانية ليست نصاً في السببية، فإننا نأخذ في السببية بما هو نص ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية.

٧- **إذا تعدد الأسباب والنازل واحد فلا يخلو الحال من إحدى الصور الآتية:**

أ- أن تكون إحدى الروايتين صحيحة والأخرى غير صحيحة ففي هذه الحالة تلغى غير الصحيحة.

ب- صحة كل من الروايتين ولإحداهما مرجح، فعندئذ نأخذ في بيان السبب الراجحة دون المرجوحة.

ج- ما استوت فيه الروايتان في الصحة ولا مرجح لإحداهما لكن يمكن الجمع بينهما بأن كلاً من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً لتقارب زمنيهما فعندئذ نحمل الأمر على تعدد السبب.

د- استواء الروايتين في الصحة دون مرجح لإحداهما ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب فعندئذ نحمل الأمر على تكرار النزول لأنه إعمال لكل رواية ولا مانع منه.

وفي تكـــرار النزول حكمة عالية وهي تنبيه الله لعباده إلى ما في تلك الآية المكـــررة من الوصايا والفوائد، وكذلك تعظيم لشأن المكرر وتذكير به خوف نسيانه.

٨- قد يكون أمر واحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعددة.

٩- الصـــحيح المعـــتمد عند الأصوليين أن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص الســـبب" وهذا هو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة، وهو الذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة.

ومن قال من أهل العلم إن "العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ" فإن مراده بذلك: أن من نزلت فيه الآية دخل دخولاً أولياً ودخل ما يشبهه تبعاً، ولا يتصور من مسلم إبطال عموم الكتاب.

١٠- لا عـــبرة لما ذهب إليه بعض أدعياء العلم في هذه الأيام من أن أحكام التشـــريع في القرآن ليست مطلقة، وأنها مخصصة بسبب التنزيل وبالتالي لم يعد القـــرآن بـــزعمهم مصدراً للأحكام التشريعية بعد زوال الأسباب التي تعلقت واختصت بها والجواب على هذه الشبهة:

أ- إن الآيات التي نزلت لأسباب خاصة لم تختص بالذين نزلت فيهم من الصـــحابة دون غيرهم، بل اتفق الصحابة والتابعون والأمة قاطبة على تعديتها إلى غير أسبابها.

ب- إن أســـباب النزول ليست منشئة للآيات، ولا هي العلة في تشريع الأحكام إنما هي مجرد وقائع اقترن حدوثها بنزول الآية والحكم.

أسئلة التقويم الذاتي

١- يشتمل القرآن الكريم من حيث أسباب النزول على قسمين، ما هما؟

٢- ما معنى سبب النزول؟ اذكر ثلاثة أمثلة لتوضيح ذلك.

٣- ما المراد بقوله (أيام وقوعه) الوارد في تعريف سبب النزول؟

٤- اذكر فوائد معرفة أسباب النزول مع ضرب مثل واحد على الأقل عند ذكر كل فائدة.

٥- ما هو طريق معرفة سبب النزول؟

٦- ما حكم سبب النزول إذا روى بحديث مرسل؟

٧- ما هي طرق التعبير عن سبب النزول؟

٨- وضح كيف يمكن أن يتعدد النازل من الآيات ويكون السبب واحداً مع ضرب مثال.

٩- وضح من خلال دراستك فهمك لقاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" مع ضرب أمثلة.

١٠- ذهب جماعة من العلماء إلى أن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" فهل يعني هذا إبطال عموم الكتاب؟ وإن كانت الإجابة بالنفي فما مقصودهم ومرادهم؟

١١- هناك افتراء مفاده أن أحكام التشريع في القرآن ليست مطلقة فهي مخصصة بسبب التنزيل، كيف تدحض هذا الافتراء من خلال دراستك؟

جمع القرآن وتدوينه

الأهداف الخاصة

يتوقع منك - عزيزي الدارس - بعد دراستك لهذه الوحدة أن ملماً بما يأتي:

الفصل الأول:

١- المراد بجمع القرآن.

٢- أطوار جمع القرآن.

٣- ترتيب الآيات والسور أمر توقيفي أم اجتهادي.

٤- تسمية السور أمر توقيفي أم اجتهادي.

٥- كتابة المصحف بالرسم العثماني أمر توقيفي أم اجتهادي.

٦- إعجام المصحف.

٧- الشبهات التي أثيرت حول جمع القرآن، والرد عليها.

٨- حكم حرق المصحف إذا بلى أو تمزق

الفصل الثاني:

١- تعريف القراءات ومعرفة نأتها.

٢- سبب اشتهار الأئمة السبعة أكثر من غيرهم.

٣- أول من صنف في القراءات.

٤- متى اشتهرت القراءات السبع ومتى دونت؟

٥- الضابط العلمي لاعتماد القراءات.

٦- فوائد الاختلاف في القراءات.

الفصل الأول: جمع القرآن وتدوينه

أولا: المراد بجمع القرآن

يطلق تعبير جمع القرآن ويراد به عند العلماء أحد أمرين:

الأول: جمع القرآن بمعنى حفظه واستظهاره في الصدور، فجُمّاع القرآن على هذا المعنى هم حفاظه، وهذا المعنى هو المشار إليه في قوله تعالى ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[1].

وقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس بيانه لمعنى هذه الآية في قوله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه، فأنزل الله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ يقول: إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه، ﴿فإذا قرأناه﴾ يقول إذا أنزلناه عليك ﴿فاتبع قرآنه﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[2] نبينه بلسانك.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أول الحفاظ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة فكان فيهم من الحفاظ خلق كثير، وما ورد من أن الحفاظ أربعة أو سبعة فإنه لا يراد به الحصر، وإنما يمكن تخريجه على إن الرواة لهذه الأخبار قد أخبر كل منهم بما علم، أو أن هؤلاء هم الذين عرضوه على النبي صلى الله عليه وسلم واتصلت بنا أسانيدهم، وأما من جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير،

---

(١) القيامة: ١٦- ١٨.

(٢) القيامة: ١٩.

ولا أدل على ذلك من أن الذين قتلوا في بئر معونة من الحفاظ كانوا سبعين كما ورد ذلك في الصحيح.

الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته كله مرتباً أو غير مرتب، أي مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة في صحيفة على حدة، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة.

أطوار جمع القرآن

لقد مر جمع القرآن على هذا النحو بثلاثة أطوار:

الطور الأول: جمعه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

ويعني بهذا الجمع التدوين، ووضع الآيات التي تأخر نزولها في مكانها من السور، فقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً للوحي من أجلاء الصحابة كعلي، ومعاوية، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، كانت تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ويرشدهم إلى موضعها من سورتها حتى تظاهر الكتابة في السطور الجمع في الصدور، ثم يوضح المكتوب في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان بين الصحابة من يكتب ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم دون أن يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم، فيخطونه في العسب واللخاف والرقاع والأقتاب والأكتاف وقطع الأدم، وكانوا يعرضون ما لديهم من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم حفظاً وكتابة، ومن هؤلاء من جمع القرآن كله، ومنهم من جمع ما تيسر له، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ثم خرج في سرية مثلاً فنزلت في غيابه سورة فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته، ثم يستدرك ما فاته في غيابه فيجمعه ويتتبعه على حسب ما يتيسر له فقد يقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك.

وكان جبريل يعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل سنة من ليالي رمضان، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن"[1]، ولعظم اهتمامه صلى الله عليه وسلم بالقرآن أرجأ كتابة أي شيء من السنة، حتى لا يختلط شيء منها بالقرآن الكريم.

لم يجمع القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في مصحف عام:

ولم يكن تدوين القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعاً في مصحف عام بل يترل الوحي فيحفظه القراء ويكتبه الكتبة، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه، في مصحف واحد لأنه صلى الله عليه وسلم كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر وقد يأتي الوحي فينسخ ما شاء الله أن ينسخه من آية أو آيات، هذا بالإضافة إلى أن ترتيب الآيات والسور لم يكن على ترتيب النزول، فلو جمع القرآن في مصحف واحد يومئذ لكان عرضة للتغيير المستمر كلما تنزلت آية أو وقع نسخ مع عسر أدوات الكتابة يومئذ.

وعلى هذا فمعنى قول زيد بن ثابت رضي الله عنه "قبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع في شيء" أي لم يكن جمع مرتب الآيات والسور في مصحف واحد، فلما استقر الأمر بختام التنزيل وأمن النسخ بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقرر الترتيب ووجد من الدواعي ما يقتضي نسخه في مصحف أو صحائف وفق الله الخلفاء الراشدين إلى القيام بهذا العلم الجليل، وكان ابتداء ذلك على يد الصديق رضي الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

(١) متفق عليه.

الطور الثاني: جمعه في عهد أبي بكر الصديق:

عرفنا أن القرآن كان مكتوباً من قبل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكـــنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعسب، **فلما كانت** خلافة أبي بكر رضي الله عنه أمر بجمعه في مصحف واحد مرتب الآيات، ملتزماً في جمعه غاية الدقة والتثبت مقتصراً فيه على ما لم تنسخ تلاوته، مشتملاً على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، فحاز هذا العمل إجماع الأمة كلها، وصار به أبو بكر أول مـــن جمـــع القـــرآن على هذه الصفة في مصحف، بل قيل إن تسمية القرآن بالمصحف نشأت من ذلك الحين، يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أعظم الـــناس في المصـــاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله .

أمـــا قصـــة هذا الجمع فقد رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عـــنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صـــدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وســـلم ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صـــلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى

شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1]، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر.

ونستخلص من هذا الحديث الذي هو أصل هذا الباب ما يأتي:

١- الجمع في عهد الرسول وترتيب الآيات كان بتوقيف منه صلى الله عليه وسلم.

٢- الراوي للجمعين هو زيد بن ثابت، الشاب العاقل الذي لم يتهم، والذي كان أحد كتاب الوحي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

٣- كانت السور مفرقة عند الصحابة، فأراد الصديق بحكم المصلحة أن يفعل شيئاً بعد أن رأى القراء قد قتل بعضهم، وفي هذا خطورة على القرآن وكان معهوداً به إلى صدور القراء وصحفهم الخاصة.

٤- لم يكن أبو بكر منفرداً بتصريف الأمور وحده، فلما عرض عليه عمر وجهة نظره استدعى زيد بن ثابت ليتعرف على رأيه.

٥- رأي زيد بن ثابت أن يستمسك باتباع النبي، وقد توفاه الله وهو مكتب بحفظ القرآن في صحف مفرقة، وفي صدور أصحابه، وأن أي إجراء بعد هذا في رأي زيد يعتبر مخالفة لما مات عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

٦- فقه عمر لمعنى الإتباع، وأنه واجب إذا استمر الحال على ما كان عليه،

---

(١) التوبة: ١٢٨.

فـإذا وجـد المقتضى لتعديل شيء وانتفى المانع كان التعديل هو روح الاتباع.

٧- اقتـنع زيد واتفق الثلاثة على وضع الخطة لجمع القرآن، وأصدر الخليفة أمره إلى قوى أمين له خبرة فيما يناط به.

٨- أدرك زيـد خطر المهمة التي نيطت به، ونفذ بجدارة وأمانة، وجمع القرآن من أهله، وروى ما صادفه في جمعه للآيتين من آخر سورة التوبة مما يؤكد أمانته الكاملة.

٩- جمـع زيـد القرآن في مصحف واحد، ووضعه في أوثق يد، يد الحاكم المسـئول عـن رعيته، وكان المصحف يتحول إلى الحكم الآخر، وظل كذلـك ثلاثة عشرة عاماً، وتلك المدة تؤكد إقرار المسلمين لما جمعه زيد في المصـحف الموجود عند أبي بكر وعمر وحفصة أم المؤمنين وبنت عمر رضي الله عنهم.

١٠- كـان يعـاون زيد في جمعه للقرآن خيرة الصحابة من أمثال سالم مولى حذيفـة، وعمر بن الخطاب، وقد انتهج زيد في جمع القرآن طريقة دقيقة محكمة وصفها له أبو بكر وعمر، فلم يكتب بما حفظ في قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه، بل أخذ على نفسه أن يعتمد على مصدرين:

أولهما: ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثانيهما: ما كان محفوظاً في صدور الرجال، وبلغ من تَحوطه وحذره أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مزايا مصحف أبي بكر:

- جمعه على أدق وجوه البحث والتحري وأسلم أصول البحث العلمي.
- الاقتصار فيه على ما لم تنسخ تلاوته.
- إجماع الأمة عليه وتواتر ما فيه.
- شموله للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

الطور الثالث: جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه:

فلما كان عهد عثمان رضي الله عنه اتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرق القراء في الأمصار، وأخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته، ووجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب بعضهم من وجوه هذا الاختلاف، وقد يفضي ذلك إلى شيء من الملاحاة والتأثيم، ثم لما كانت غزوة أرمينية وأذربيجان من أهل العراق كان فيمن غزاها حذيفة بن اليمان، فرأى اختلافاً كثيراً في وجوه القراءة، وبعض ذلك مشوب باللحْن مع استمساك كل بقراءته، وربما أفضى الأمر إلى المماراة وتكفير بعضهم بعضاً، عندئذ فزع إلى عثمان رضي الله عنه ليتدارك الأمر، وكان بدوره قد استشعر شيئاً من ذلك لدى من يقرئون الناشئة، وخشي أن ينجم عنه شيء من التحريف والتبديل، فأجمع أمره على نسخ الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر وجمع الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد، فأرسل إلى حفصة فأرسلت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري وإلى عبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبد الرحمن بن الحارث القرشيين، فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف، وأن يكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان

قريش فإنه نزل بلسانهم.

ولنستمع إلى رواية البخاري في الصحيح لقصة هذا الجمع الثالث فيما يرويه عن أنس، فقد روى في صحيحه عن أنس أن حذيفة بن اليمان، قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبر وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنت وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل على كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال زيد: ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]، فألحقناها في سورتها في المصحف أ.هـ.

ونستخلص من هذا الحديث ما يأتي:

١- الاعتماد في الجمع الثالث كان على الصحف التي جمعت في عهد الصديق رضي الله عنه.

٢- الإضافة في هذا الجمع تمثلت في ترتيب السور، وجمع الناس على حرف

(١) الأحزاب: ٢٣.

واحد، ووضع رسم يحتمل القراءات التي قُرء بها القرآن على لهجة قريش.

٣- أقـر القرشيون الثلاثة ما كان قد جمعه زيد، وإن اختلفوا معه في كيفية الكـتابة، ورضى زيد أن يعدل رسمه إلى الرسم الموافق للسان قريش لأنه نزل بلغتهم.

٤- وزعت المصاحف على الأمصار، وألغيت الصحف الخاصة المكتوبة برسم خـاص لا يعـرفه إلا الكاتب وقبيلته، واعتبرت المصاحف العثمانية هي المـرجع لكل المسلمين وقد كتبوا مصاحف متعددة لأن عثمان رضي الله عـنه قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار المسلمين وهي متعددة، وكتبوها متفاوتة في إثبات وحذف وبدل وغيرها؛ لأنه رضي الله عنه قصد اشمالها على القراءات الصحيحة، وجعلوها خالية من النقط والشكل تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضاً.

والخلاصـة: إن اللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات كانوا يرسمونه بصـورة واحـدة لا محالة، أما الذي تختلف فيه وجوه القراءات فإن كان رسمه محـتملاً لأن يقـرأ بكـل هذه الوجوه فقد قضى الأمر وذلك نحو قوله تعالى: ﴿**فتثبتوا**﴾[1] فإن هذه الكلمة عندا تجرد من النقط والشكل تصلح أن تقرأ أيضاً ﴿**فتثبتوا**﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿**ننشزها**﴾[2] فإنها عند خلوها من النقط والشكل تحتمل قراءة ﴿**ننشرها**﴾.

أمـا مـا كان رسمه رغم خلوه من النقط والشكل لا يدل على أكثر من قـراءة فكانوا يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه في مصحف ورسم آخر يوافق

(١) الحجرات: ٦.

(٢) البقرة: ٢٥٩.

بعض الوجوه الأخرى في مصحف آخر، نحو قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾[1]، فإنها تكتب هكذا في مصحف وتكتب في مصحف آخر ﴿وأوصى بها إبراهيم﴾ لإثبات هذه القراءة، ونحو قوله تعالى: ﴿تجري تحتها الأنهار﴾[2] فإنها تكتب هكذا في مصحف وتكتب في مصحف آخر ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ لإثبات هذه القراءة على أن هذه القراءات جميعاً ترجع إلى لهجة قريش.

٥- الآية التي سقطت من سورة الأحزاب ووجدها زيد عند خزيمة الأنصاري كانت موجودة في مصحف الصديق، وسقطت من النساخ في عهد عثمان ودونت في مصحفه والمصاحف التي وزعت على الأمصار سنة خمس وعشرين.

٦- ومعنى قول زيد: "فوجدتها عند خزيمة" أي في الموضع الذي أراد أي يضعها فيه من سورة الأحزاب، ووجودها عند خزيمة في نفس الموضع الذي روى زيد سماعها من النبي صلى الله عليه وسلم، يؤكد دقة سماع زيد رضي الله عنهم جميعاً.

ومن هنا تبين أن التدوين بدأ من عهد النبوة، وأن الجمع الثالث يختلف عن الجمع الثاني في أنه رتب السور وجمع الناس على رسم واحد يحتمل اللهجات العديدة، وكان كل جمع بحضور عدد يتأكد به التواتر ثم ينعقد الإجماع على ما فعلوه.

ويقال: إن مصاحف عثمان أرسلت إلى مكة، وإلى الشام، وإلى اليمن، وإلى البحرين، وإلى البصرة، وإلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحداً.

---

(١) البقرة: ١٣٢.

(٢) التوبة: ٨٩.

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما:

يتبين مما سبق أن جمع القرآن في عهد أبي بكر كان عبارة عن نقل القرآن وكتابـــته في مصحف واحد مرتب الآيات، وكان سبب الجمع موت الحفاظ، وأما جمع عثمان فقد كان عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر لترسل إلى الآفاق الإسلامية، وذلك بعد ترتيب السور والاقتصار عـــلى رسم واحد يحتمل القراءات العديدة، وكان السبب في هذا الجمع إنما هو اختلاف القراء في قراءة القرآن.

ترتيب الآيات في السور توقيفي

وترتيب الآيات في السور توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه، فقد انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، بل كان جبريل ينزل بالآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها فيقرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه كذلك، ويأمر كتّاب الوحي بكتابتها في موضعها، وقد انعقد الإجماع على ذلك تاماً لا ريب فيه، ومن الأدلة التي استند إليها هذا الإجماع ما يلي:

. ما ثبت في السنن الصحيحة من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم بسور كسورة البقرة وآل عمران والنساء، وقراءته لسورة الأعراف في صلاة المغرب، والمؤمنون والروم في صلاة الصبح، والسجدة والإنسان في صبح الجمعة، كان يقرأ ذلك كله مرتب الآيات على النحو الذي في المصحف على مرأى ومسمع من الصحابة، فلو لم تكن آياتها مرتبة فكيف كان يقرأ؟

وما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب قال: ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: "يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء" فقد دله على موضع تلك الآية من سورة النساء.

وما رواه أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذا شخص ببصره ثم صوبه، ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾[1].

(١) النحل: ٩٠.

رابعاً الخلاف في ترتيب السور

اختلف أهل العلم في ترتيب السور على ثلاثة أقوال:

الأولى: إن ترتيب السور كان باجتهاد موفق من الصحابة و لم يكن عن توقيف من النبي صلى الله عليه وسلم مستدلين على ذلك بما يلي:

ما كان بين مصاحف الصحابة من اختلاف في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، ولو كان ترتيب السورة توقيفياً لما جاز لهم أن يهملوه ويتجاوزه.

وبما ورد من أن عثمان جعل سورة الأنفال وسورة التوبة في السبع و لم يفصل بينهما بـ بسم الله الرحمن الرحيم، ولما سأله ابن عباس عن ذلك قال: كانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم و لم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما"[1].

الثاني: أن ترتيب السورة كلها توقيفي كترتيب الآيات، مستدلين على ذلك بما يلي:

إجماع الصحابة على المصحف الذي كتب في عهد عثمان، وعدولهم عن مصاحفهم وإحراقها، ولا يكون ذلك إلا إذا كان هذا الترتيب الذي أجمعوا عليه توقيفياً.

كما استدلوا على ذلك أيضاً بأن السور المتجانسة في القرآن لم يلتزم فيها

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

الترتيـــب، فسور المسبحات لم يلتزم فيها الترتيب، بل فصل بينها بسورة المجادلة والممتحـــنة والمـــنافقين، رغم افتتاحهما جميعاً بتسبيح الله، وفصل بين الشعراء والقصـــص بسور أقصر منهما وهي النمل رغم تماثلهما في الابتداء، ولو كان ترتيب السور اجتهادياً للوحظ مكان هذا التجانس والتماثل.

الثالـــث: أن ترتيـــب بعض سور القرآن توقيفي، وترتيب بعضها الآخر اجتهادي جمعاً بين هذه الأدلة المتعارضة.

وأيا كان الأمر فإنه يجب احترام هذا الترتيب في كتابة المصاحف لأنه من إجمـــاع الصـــحابة، ولمـــا تجر إليه مخالفته من الفتنة، ودرء الفتنة وسد الذرائع واجبان، أما ترتيب السور في التلاوة فمندوب وليس واجباً بلا نزاع.

تسمية السور

لا نعلم نصاً صحيحاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على تسمية السور جميعاً، ولكن ورد في بعض الأحاديث الصحيحة تسمية بعضها من النبي صلى الله عليه وسلم كالبقرة وآل عمران، أما بقية السور فالأظهر أن تسميتها من الصحابة رضي الله عنهم.

الرسم العثماني

للعلماء في التزام الرسم العثماني للمصحف ثلاثة آراء:

الأول: أنه توقيفي لا تجوز مخالفته، واستدلوا بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الرسم، وإجماع الصحابة عليه، ثم إجماع الأمة عليه بعد ذلك في عهد التابعين والأئمة المجتهدين، وقد روى السخاوي أن مالكاً سئل: أرأيت من استكتب مصحفاً أترى أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: لا أرى ذلك، ولكن يكتب على الكيفية الأولى، وقال أبو عمرو الداني: لا مخالف لمالك من علماء الأمة في ذلك.

الثاني: أن رسم المصاحف اصطلاحي وليس توقيفياً، فتجوز مخالفته، وذلك لأن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت، ولم يرد دليل صحيح على وجوب رسم بعينه، بل ربما دلت السنة على خلاف ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً، ولا نهى أحداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال.

الثالث: يجوز كتابة المصحف للعامة على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم لئلا يؤدي التزام الرسم العثماني لهم إلى تغيير وخلط من قبل الجهال مع

المحافظـــة على الرسم العثماني في أيدي العارفين كأثر من الآثار النفيسة الموروثة عـــن الســـلف الصالح، وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين، ولعل هذا الرأي أولى بالاعتبار.

ويستحب كتابة المصحف وتحسين كتابته وتبيينها وإيضاحها وتحقيق الخط دون مشـــقة وعـــلى أن لا يُستغرق في ذلك، فإن أحسن ما زين به كتاب الله حسن تدبره والحرص على العمل بما فيه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه : "إن أحسن ما زين به المصحف تلاوته بالحق".

إعجام المصحف

إعجام الكتاب نقطه، ومن المعروف أن المصحف العثماني لم يكن منقوطاً ولا مشكلاً وذلك اعتماداً على السليقة العربية السليمة التي لا تحتاج إلى الشكل بالحركات ولا إلى الإعجام بالنقط من ناحية وإبقاء للكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات فيها من ناحية أخرى.

وقد اختلف العلماء في أول جهد بذل في هذا الصدد:

فمنهم من يرى أن أول من فعل ذلك نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر بأمر عبد الملك بن مروان حين كثرت التصحيفات وانتشرت في العراق ففكر ولاة الأمر في النقط والتشكيل.

ومنهم من ينسب هذا الأمر إلى أبي الأسود الدؤلي.

ويجمع بعض الباحثين بين الرأيين بأن أبا الأسود الدول أول من نقط المصحف، ولكن بصفة فردية، وأن عبد الملك أول من نقط المصحفة بصفة رسمية عامة فذاعت وشاعت بين الناس.

ثامناً: شبه مردودة

كان القرآن ولا يزال هدفاً لأعداء الإسلام يسددون إليه السهام والمطاعن لتوهين الثقة في هذا الكتاب الذي لا تعرف الدنيا بأسرها كتاباً سلم من التحريف والتبديل سواه.

وأهم الشبه التي أثاروها – وهي أوهى من بيت العنكبوت – ما يلي:

١- زعمهم أن النصوص قد دلت على أن القرآن قد سقط منه شيء لم يكتب في المصاحف التي بين أيدينا اليوم.

ومن هذه النصوص التي بنوا عليها هذا الزعم:

أ- ما جاء في الصحيحين عن عائشة قالت: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ في المسجد فقال: يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية من سورة كذا، كنت أسقطتهن" وفي رواية: "أنسيتهن" والحديث في الصحيحين بألفاظ متقاربة.

ويجاب عن هذا بأن تذكير الرسول بآية أو آيات قد أنسيها أو أسقطها نسياناً لا يشكل في جمع القرآن، فإن الرواية التي جاء فيها التعبير بالإسقاط تفسرها الرواية الأخرى "كنت أنسيتها" وهذا يدل على أن المراد بإسقاطها نسيانها، كما يدل عليه لفظ "أذكرني" والنسيان جائز على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لا يخل بالتبليغ، وكانت هذه الآيات قد حفظها رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستكتبها كتاب الوحي، وحفظها الصحابة في صدورهم، وبلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر، فنسيان الرسول صلى الله عليه

وسلم لما بعد ذلك لا يؤثر في دقة جمع القرآن، وهذا هو غاية ما يدل عليه الحديث، ولذا كانت قراءة هذا الرجل – وهو أحد الحفظة الذين يبلغ عددهم حد التواتر – مذكرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم "لقد أذكرني كذا وكذا آية".

ب- الاستثناء الوارد في سورة الأعلى في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[1]. فإنه يدل بزعمهم على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنسى بعض الآيات.

ويجاب عن ذلك بأن الله تعالى قد وعد رسوله بإقراء القرآن وحفظه وأمنه من النسيان في قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ ولما كانت الآية توهم لزوم ذلك، والله تعالى فاعل مختار: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[2]، جاء الاستثناء: ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ للدلالة على أن هذا الإخبار بإقراء الرسول القرآن وتأمينه من النسيان ليس خارجاً عن إرادته تعالى، فإنه سبحانه لا يعجزه شيء، فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأييد والتخليد بكرم من الله وسعة جوده، لا بتحتيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع.

والذي يدل على أن هذا هو المراد بهذا الاستثناء وأنه صوري لا حقيقي أمران:

أحدهما: ما جاء في سبب النزول وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعب نفسه بكثرة قراءة القرآن حتى وقت نزول الوحي، مخافة أن ينساه ويفلت

(١) الأعلى: ٦، ٧.

(٢) الأنبياء: ٢٣.

مـــنه؛ فاقتضت رحمه الله بحبيبه أن يطمئنه من هذه الناحية، وأن يريحه من هذا العـــناء، فنزلت هذه الآية، كما نزلت آية: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْـــنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[1]، وآية: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[2].

ثانـــيهما: أن قوله تعالى: ﴿ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله إيـــاه، والمشيئة لم تقع بدليل ما مـــر بك من نحو قوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ وإذن فالنسيان لم يقع للعلم بأن عدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلق.

وهـــذا إذا أريد بالنسيان المحو التام من الذاكرة، أما إذا أريد به مجرد غيبة الذهن فقد سبق أن هذا لا يقدح في مقام الرسالة، ولا يقدح في قرآنية الآية ما دامـــت الآية محفوظة في صدور الصحابة، ومكتوبة بواسطة كتاب الوحي، وقد بلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر.

وثمـــة وجه آخر في معنى الاستثناء وهو أن المراد به منسوخ التلاوة دون غـــيره، فـــيكون معـــنى الآية أن الله يقرئ نبيه فلا ينسيه إلا ما شاءه، وهو ما نسخت تلاوته لحكمة من الحكم التي بينها العلماء في مبحث النسخ.

٢- وزعموا : أن في القرآن ما ليس منه:

واستدلوا على ذلك ما يلي:

ما روى من أن ابن مسعود أنرك أن المعوذتين من القرآن!

ويجـــاب على ذلك بأن نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه لم يصح، وهو

---

(١) القيامة: ١٦، ١٧.

(٢) طه: ١١٤.

مخـــالف لإجماع الأمة، قال النووي في شرح المهذب "وأجمع المسلمون على أن المعوذتـــين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد شيئاً منها كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح".

وقال ابن حزم: "هذا كذب على ابن مسعود وموضوع"، بل صح عن ابن مســـعود نفسه قراءة عاصم وفيها المعوذتان والفاتحة، وعلى فرض صحته فالذي يحـــتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي صلى الله عليه وسلم فتوقف في أمـــرهما، وإنما لم ينكر ذلك عليه لأنه كان بصدد البحث والنظر، والواجب علـــيه التثبت في هذا الأمر، فلم تبين له قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن.

وإنكـــار ابـــن مسعود لا ينقض إجماع الأمة على أن المعوذتين من القرآن المتواتر، ومثل هذا يجاب به على ما قيل من أن مصحف ابن مسعود قد أسقطت منه الفاتحة، فإن الفاتحة هي أم القرآن ولا تخفى قرآنيتها على أحد.

ومـــن احـــتجاجهم على هذه الشبهة الفاسدة ما زعموا من أن ما كان مكتوباً من القرآن على العظام ونحوها كان غير منظم ولا مضبوط، وقد ضاع بعضه.

وينقض هذه الفرية ما أثبتناه آنفاً في جمع القرآن من أن ترتيب آياته كان توقيفـــياً، وأن الرســـول صـــلى الله عليه وسلم كان يقرئها أصحابه كذلك، ويحفظهـــا الجمـــيع، ويكتبها من شاء منهم لنفسه على هذا النحو؛ حتى صار القـــرآن وضبط آياته معروفاً مستفيضاً بين الصحابة حفظاً وكتابة، ووجدوا ما كتـــب عند الرسول من القرآن، مرتب الآيات كذلك في كل رقعة أو عظمة، وإن كانـــت العظام والرقاع منتشرة وكثيرة مبعثرة، على أننا قررنا غير مرة أن

التعويل كان على الحفظ والتلقي قبل كل شيء، ولم يكن التعويل على المكتوب وحده، فلا جرم كان في الحفظ والكتابة معاً، ضمان للنظام والترتيب والضبط والحصر.

وأمـــا قولهم في الاحتجاج: - وقد ضاع بعضها - فيظهر أنهم استندوا في ذلـــك إلى ما ورد من أنه فقدت آية من آخر سورة براءة فلم يجدوها إلا عند خـــزيمة بن ثابت؛ فظن هؤلاء أن هذا اعتراف منهم بضياع شيء من مكتوب القـــرآن، ولـــيس الآمر كما فهموا؛ بل المعنى أن الصحابة لم يجدوا تلك الآية مكـــتوبة إلا عند خزيمة بخلاف غيرها من الآيات، فقد كانت مكتوبة عند عدة من الصحابة؛ ومع ذلك فقد كان الصحابة يقرأونها ويحفظونها ويعرفونها بدليل قولهم: فقدت آية، وإلا فما أدراهم أنها فقدت من الكتابة لو لم يحفظوها.

٣- ويـــزعم نفر من غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمان حرفوا القرآن وأسقطوا بعض آياته وسوره، فحرفوا لفظ ﴿أمة هي أربى من أمة﴾[1] والأصل (أئمـــة هي أزكى من أئمتكم) وأسقطوا من سورة الأحزاب آيات فضائل أهل البيت وقد كانت في طولها مثل سورة الأنعام!! وأسقطوا سورة الولاية بتمامها من القرآن.

ويجـــاب عـــن ذلك بأن هذه الأقوال أباطيل لا سند لها ودعاوي لا بينة علـــيها، والكـــلام فـــيها حمق وسفاهة، وقد تبرأ بعض علماء الشيعة من هذا السخف، والمنقول عن علي رضي الله عنه الذي يدعون التشيع له يناقضه، ويدل على انعقاد الإجماع بتواتر القرآن الذي بين دفتي المصحف، فقد أثر عنه أنه قال في جمـــع أبي بكر "أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي

(١) النحل: ٩٢.

بكر، هو أول من جمع كتاب الله".

وقال في جمع عثمان: "يا معشر الناس، اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حراق مصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملإ منا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: لو كنت الوالي وقت عثمان فعلت في المصاحف مثل الذي فعله عثمان".

فهـــذا الذي أثر عن علي رضي الله عنه نفسه يقطع ألسنة أولئك المفترين الذين يزعمون نصرته فيهرفون بما لا يعرفون تشيعاً وهو منهم براء [1].

مـــاذا يفعل بالمصحف إذا بلى أو تمزق من كثرة الاستعمال أو وجدت به بعض الأغلاط المطبعية؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد:

إذا بليت أوراق المصحف وتمزقت من كثرة القراءة فيها مثلاً، أو أصبحت غير صالحة للانتفاع بها، أو عثر فيها على أغلاط من إهمال من كتبها أو طبعها ولم يمكن إصلاحها جاز دفنها بلا تحريق، وجاز تحريقها ثم دفنها بمكان بعيد عن القاذورات ومواطئ الأقدام، صيانة لها من الامتهان وحفظاً للقرآن من أن يحصل فـــيه لبس أو تحريف أو اختلاف بانتشار المصاحف التي طرأت عليها أغلاط في كتابتها أو طباعتها.

وقـــد ثبت في باب جمع القرآن من صحيح البخاري أن عثمان بن عفان رضـــي الله عنه أمر أربعة من خيار قراء الصحابة بنسخ مصاحف من المصحف الـــذي كـــان قد جمع بأمر أبي بكر رضي الله عنهم فلما فرغوا من ذلك أرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل

(١) انظر مناهل العرفان والإتقان ومباحث في علوم القرآن للأستاذ/ مناع القطان.

صحيفة ومصحف أن يحرق، و لم ينكر عليه أحد من الصحابة إلا ما روى عن ابن مسعود، لكنه إنما أنكر قصر الناس على المصحف الذي أرسل به عثمان إلى الآفاق و لم ينكر التحريق[1].

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (٤/ ١٠٠).

الفصل الثاني: القراءات والقراء

أولاً: تعريف القراءات ومعرفة نشأتها

القـــراءات: جمع قراءة، وهي في الاصطلاح العلمي: مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهباً يخالف غيره، وهي ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويـــرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصـــحابة، فقـــد اشـــتهر بالإقراء منهم: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مســـعود، وأبو موسى الأشعري وغيرهم، وأخذ عنهم خلق كثير من الصحابة والتابعين في كل مصر من الأمصار.

وفي عهد التابعين على رأس المائة الأولى تجرد قوم لهذا الأمر واعتنوا بضبط القـــراءة عناية تامة، وجعلوها علماً كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى، وصاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم، واشتهر من هؤلاء ومن الطبقة التي تلتهم الأئمة السبعة الذين تنسب إليهم القراءات اليوم وهم:

١- نافع بن نعيم، ت: ١٦٩.

٢- عبد الله بن كثير، ت: ١٢٠.

٣- عبد الله بن عامر، ت : ١١٨.

٤- عاصم بن بهدلة الأسدي، ت: ١٢٨.

٥- حمزة بن حبيب الزيات، ت: ١٥٦.

٦- علي بن حمزة الكسائي، ت: ١٨٩.

٧- أبو عمرو بن العلاء، ت: ١٥٤.

سبب اشتهار الأئمة السبعة أكثر من غيرهم:

ولـــيس انحصار الأئمة الذين اعتمدوا إذ ذاك في ضبط القراءات في السبع دليلاً على أن القراءات المتعددة فيما تعددت القراءة فيه من ألفاظ النبي صلى الله علـــيه وســـلم وتابعه فيها الصحابة كنسب محصورة في سبع ولا عشر، ولكن سبب اشتهار هؤلاء السبعة دون غيرهم — كما يقول أبو محمد مكي وغيره — أن عثمان رضي الله عنه كتب المصاحف ووجهها إلى الأمصار، وكان القراء في العصـــر الثاني والثالث كثيري العدد، فأراد الناس أن يقتصروا في العصر الرابع على ما وافق المصحف، فنظروا إلى إمام مشهور بالفقه والأمانة في النقل وحسن الديـــن، وكمال العلم، قد طال عمره واشتهر أمره وأجمع أهل كل مصر على عدالـــته، فأفردوا من كل مصر وجه إليه عثمان مصحفاً إماماً هذه صفة قراءاته على مصحف ذلك المصر.

فكـــان أبـــو عمرو من أهل البصرة، وعاصم من أهل الكوفة وسوادها، والكسائي من أهل العراق، وابن كثير من أهل مكة، وابن عامر من أهل الشام، ونـــافع مـــن أهل المدينة، كلهم ممن اشتهرت إمامتهم وطال عمرهم في الإقراء، وارتحل الناس إليهم من البلدان [1].

وعـــن كل إمام من الأئمة السبعة راويان: فعن نافع: قالون وورش، وعن ابـــن كثير: البزي وقنبل، وعن أبي عمرو: الدوري والسوسي، وعن ابن عامر: هشام وابن ذكوان، وعن عاصم: أبو بكر بن عياش وحفص، وعن حمزة: خلف وخلاد، وعن الكسائي: الدوري وأبو الحارث.

ولا تعني شهرة هؤلاء الأئمة السبعة انحصار القراء فيهم أو انحصار القراءة

---

(١) راجع هذه الفقرة في البرهان للزركشي (١/ ٨٢٩).

المقـــبولة فيما نقل عنهم، بل كل قراءة توافرت فيها ضوابط القبول على النحو الذي سيأتي ذكره فهي مقبولة، ومن هنا كانت القراءات العشر بزيادة قراءات يعقـــوب وأبي جعفـــر وخلف على قراءات أولئك السبعة، وكانت القراءات الأربـــع عشـــرة بـــزيادة قراءات الحسن البصري، وابن محيض ويحيى اليزيدي والشنبوذي على قراءات أولئك العشرة.

ثانياً أول من صنف في القراءات

أبـــو عبـــيد القاســـم بن سلام، ثم أحمد بن حبير الكوفي، ثم إسماعيل بن إســـحاق المالكي، ثم أبو جعفر بن جرير الطبري، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمـــر الدجـــوني ثم صـــنف طبقاتهم: أبو عبد الله الذهبي، ومن بعده أبو الخير الجـــزري، وقد ألف الإمام الشاطبي في القراءات كتاباً منظوماً ذكر فيه ما تعلق بالقـــراءات الســـبعة سماها الشاطبية، ولا تزال تدرس الشاطبية في معاهد مصر التابعة للأزهر.

متى اشتهرت القراءات السبع ومتى دونت؟

اشـــتهرت هذه القراءات في الأمصار الإسلامية على رأس المائتين، فكان الـــناس في البصـــرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير وبالمدينة على قـــراءة نـــافع ودونت في نهاية القرن الثالث على يد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موســـى بـــن عباس فجمع قراءات هؤلاء السبعة غير أنه أثبت اسم الكسائي وحذف يعقوب.

ثالثاً الضابط العلمي لاعتماد القراءات

وإنما اعتمد العلماء قراءات هؤلاء الأئمة السبعة والثلاثة المتممة للعشرة وهي: قراءة يعقوب، وأبي جعفر، وخلف بناء على ضابط علمي كان هو الأساس في قبولهم لها، واعتمادهم إياها من أين جاءت وإلى من نسبت.

والضابط كما يقول ابن الجزري في أول كتابه "النشر" هو أن كل قراءة تواتر سندها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووافقت خط المصحف العثماني ولو احتمالاً، ووافقت العربية بوجه من الوجوه المعتبرة فتلك هي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، سواء نقلت عن الأئمة السبعة أو العشرة، وما لم تجتمع فيه هذه الشروط الثلاث فهي شاذة مردودة لا يقرأ بها أيا كان الإمام الذي نقلت عنه.

يقول أبو شامة: "لا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تعزي إلى أحد السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة وأنها أنزلت هكذا إلا إذا دخلت في ذلك الضابط، وحينئذ لا ينفرد بنقلها مصنف عن غيره، ولا يختص ذلك بنقلها عنهم، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة، فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه، فإن القراءة المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءاتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم".

فالشرط الأول التواتر، والقاعدة أن القرآن يوجب العقل تواتره؛ لأن

الدواعي تتوافر على نقل الشيء إما لغرابته أو لفرط أهميته، والقرآن كله متواتر منقول بواسطة سلسلة من الجموع التي يؤمن تواطؤها على الكذب عن طريق كل من الكتابة والمشافهة.

والمقصود بموافقة القراءة لخط المصحف العثماني ولو احتمالاً، أن تكون أصول الكتابة والرسم التي كتب بها المصحف العثماني، مما يحتمل القراءة ويقبلها بوجه من الوجوه ولو تقديراً كقوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾[1] ﴿ملك يوم الدين﴾ ورسم المصحف مما يحتمل لقراءة القصر (ملِك) والمد (مالك) إذ أن حذف المد مما تحتمله أصول الرسم.

والمراد بموافقه العربية ولو بوجه أن تكون القراءة سائغة في النحو نحو قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾[2]، فيمكن حمل المقيمين على أنه منصوب بفعل تقديره أمدح.

وقد نظم هذا الضابط صاحب الطيبة فقال:

وكل ما وافق وجه النحو ... وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسنادا هو القرآن ... فهذه الصلاة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت ... شذوذه لو أنه في السبعة

فكل قراءة توافرت فيها أركانها الثلاثة منكرها كافر، وأما ما صح نقله عن الآحاد ووافق العربية لكن خالف الرسم العثماني فيقبل ولا يقرأ به، ويحتج

(١) الفاتحة: ٤.

(٢) النساء: ١٦٢.

بـــه على أنه رواية، كقراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في كفارة اليمين: "فصام ثلاثة أيام متتابعات".

وأمـــا ما نقله الثقة ولا حجة له في العربية، أو نقله غير الثقة وله حجة في العربية فهذا لا يقبلان ولا يقرأ بهما وإن وافقا الرسم العثماني.

والقـــراءات العشر لا تخرج عن كونها متواترة أو مشهورة شهرة قد تفوق التواتر.

وإذا ثبت تواتراً ألفاظ القرآن إلى أئمة القراءات، ومنهم إلينا ثبت كذلك تواتر كيفية أدائه من مد، وغن، وتحقيق، وتسهيل، وغير ذلك من أحكام تناولها علماء التجويد بالتفصيل والإيضاح.

رابعاً فوائد الاختلاف في القراءات الصحيحة

لاختلاف القراءات الصحيحة فوائد، منها:

أ- الدلالة على صيانة كتاب الله عز وجل وحفظه من التبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة.

ب- التخفيف على الأمة وتسهيل القراءة عليها.

ج- إظهار فضل هذه الأمة وقد أنزل الله إليها الكتاب على أكثر من وجه.

د- إفساح المجال للاجتهاد واستنباط الأحكام والمعاني، فإن من المعلوم أن تعدد القراءة في الآية الواحدة ينبني عليه اختلاف النظر في الحكم الفقهي، فمن يرى نقض الوضوء بلمس المرأة لاحتمال ذلك في قوله تعالى: ﴿**أو لامستم النساء**﴾[1] فإنه يمكنه أن يرجح هذا القول بقراءة ﴿**أو لمستم**﴾ بدون ألف بعد اللام، ومن اشترط الإيمان في الرقيق الذي يعتق كفارة يمين يمكن أن يستدل بقراءة ﴿**أو تحرير رقبة مؤمنة**﴾.

هـ - المبالغة في إعجازه بإيجازه إذ تنوع القراءات بمنزلة الآيات، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعي ،دون تكرار اللفظ كقراءة: ﴿**وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾[2]، بالنصب والخفض في ﴿وأرجلكم﴾، ففي قراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين حيث

(١) النساء: ٤٣.

(٢) المائدة: ٦.

تكون معطوفة على المغسولات، وفي قراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين حيث تكون معطوفة على الممسوح وهو الرأس، فيستفيد الحكمين من غير تطويل، وذلك ضرب من ضروب البلاغة، ويبتدئ من جمال هذا الإيجاز وينتهي إلى كمال الإعجاز، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدة لم يخف ما في ذلك من التطويل.

وجعل بعض القراءات بياناً لما أجمل في القراءة الأخرى كقراءة (يطهرن) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾[1]، قرئ بالتشديد والتخفيف، فقراءة التشديد مبنية لمعنى قراءة التخفيف عند الجمهور، فالحائض لا يحل وطؤها لزوجها بالطهر من الحيض أي بانقطاع الدم حتى تتطهر بالماء.

(١) البقرة: ٢٢٢.

الخلاصة

المراد بجمع القرآن :

أ- حفظه في الصدور.

ب- كتابته كله في صحائف مجتمعة.

أطوار جمع القرآن:

وقد مر ذلك الجمع بثلاثة أطوار:

الطـــور الأول: جمعه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم: ومعناه التدوين، ووضع الآيات التي تأخر نزولها في مكانها من السور.

الطـــور الثاني: جمعه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، جمع للقرآن كله في مصحف واحد مشتملاً على الأحرف السبعة.

الطور الثالث: جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه: نسخ الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر، وجمع الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد.

ترتيب الآيات في السور توقيفي وقد أجمعت الأمة على ذلك.

اختلف العلماء في ترتيب السور على ثلاثة أقوال:

١- كان باجتهاد موفق من الصحابة.

٢- هو توقيفي كترتيب الآيات.

٣- بعضه توقيفي وبعضه اجتهادي.

وأيـــا كـــان الأمر فإنه يجب احترام هذا الترتيب في كتابة المصاحف لأنه إجماع الصحابة.

تسمية السور: بعضها توقيفي وبعضها اجتهاد من الصحابة.

الرسم العثماني في كتابة المصاحف:

لأهل العلم فيه ثلاثة آراء:

١-توقيفي لا تجوز مخالفته.

٢- اصطلاحي ليس توقيفياً، فتجوز مخالفته.

٣- يجوز كتابته للعامة على الاصطلاحات المعروفة مع المحافظة على الرسم العثماني في أيدي العارفين.

إعجام المصحف:

هو نقطه لتسهيل ضبط الكلمات على غير أهل الجزيرة العربية وقد اختلف في تعيين أول من قام بذلك.

أثيرت شبه حول آيات القرآن بنفي ما هو منه، وإثبات ما ليس منه، وهي أوهى من بيت العنكبوت، تدحضها الأدلة والروايات الثابتة.

أفتى العلماء بجواز حرق المصحف ودفنه إذا بلى أو تمزق أو وجدت به بعض الأخطاء المطبعية.

القراءة:

- مذهب من مذاهب النطق في القرآن، يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهباً يخالف غيره، وهي ثابتة بالأسانيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- يرجع عهد القراء إلى عهد الصحابة.
- اشتهار الأئمة السبعة لا يعني انحصر القراءات في سبع.

أول من صنف في القراءات:

أبو عبيد بن سلام، واشتهرت القراءات السبعة ودونت على رأس المائتين.

الضابط العلمي لاعتماد القراءات:

١- تواتر السند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢- موافقة خط المصحف العثماني ولو احتمالاً.

٣- موافقة العربية بوجه من الوجوه المعتبرة.

فوائد الاختلاف في القراءات:

١- الدلالة على صيانة الله عز وجل لكتابه.

٢- التخفيف على الأمة.

٣- إظهار فضل هذه الأمة وقد أنزل الله إليها الكتاب على أكثر من وجه.

٤- إفساح المجال للاجتهاد واستنباط الأحكام والمعاني.

٥- المبالغة في الإعجاز بالإيجاز.

٦- بيان بعض القراءات لما أجمل في القراءات الأخرى.

أسئلة التقويم الذاتي

١- ما المراد بجمع القرآن؟

٢- اذكر الأطوار التي مر بها جمع القرآن، وخصائص كل منها.

٣- ترتيب الآيات والسور، وتسمية السور، وكتابة المصحف بالرسم العثماني، هل هي أمر توقيفية أم اجتهادية؟ فصل مع ذكر الأدلة على ما تقول.

٤- ما معنى إعجام المصحف؟ ومتى تم ذلك؟ وما هي الحكمة من ورائه؟

٥- اذكر الشبهات التي أثيرت حول جمع القرآن، وبين كيف ترد عليها، مع ذكر أدلتك.

٦- ماذا يفعل بالمصحف إذا بلى أو تمزق من كثرة الاستعمال أو وجدت به بعض الأغلاط المطبعية؟

٧- عرف القراءات، وبين تاريخ نشأتها كعلم.

٨- اذكر أسماء الأئمة السبعة في القراءات.

٩- ما هو الضابط العلمي لاعتماد القراءات؟

١٠- ما هي فوائد الاختلاف في القراءات؟

الوحدة الخامسة

المكي والمدني

الأهداف الخاصة

يتوقع منك - عزيزي الدارس - بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على معرفة ما يلي:

الفصل الأول:

١- تعريف المكي والمدني.

٢- السبيل إلى معرفة المكي والمدني.

٣- خصائص كل منهما.

٤- الفائدة من معرفة هذا العلم.

٥- الشبهات التي أثيرت حول المكي والمدني، وردها.

الفصل الثاني:

١- أهمية معرفة الوقف والابتداء.

٢- أقسام الوقف.

٣- ما يترتب على الجهل بالوقف والابتداء.

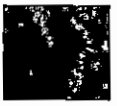

الفصل الأول: المكي والمدني

تمهيد:

ينقسم القرآن في مجموعه إلى مكي ومدني، وقد عنى العلماء والرواة عناية كبرى بتمييز هذين القسمين عن بعضهما، واستخراج خصائص كل منهما، لما يترتب على ذلك من الفوائد التشريعية والتاريخية التي ستعلمها فيما بعد، بل لقد عني الرواة والباحثون بتصنيف القرآن إلى ما نزل منه في النهار وما نزل في الليل وإلى ما نزل منه في الأسفار وما نزل منه في الحضر.

ونحن لن نتناول في بحثنا هذا حديث الليلي والنهاري، أو الحضري والسفري من القرآن، لأنا نرى أن فائدة ذلك في هذا المقام فائدة جزئية ضعيفة، وإن كان البحث فيها ينبهنا إلى مدى اهتمام العلماء والرواة بالقرآن وإلى مدى خدمتهم ودراستهم له من شتى الجوانب المختلفة.

أولاً تعريف المكي والمدني

للعلماء ثلاثة اصطلاحات في تعريف كل من المكي والمدني.

أحدهما: إن المكي هو كل ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة، سواء كان ذلك قبل الهجرة أو من بعدها، فالاعتبار على هذا الاصطلاح للمكان وحده.

والثاني: إن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة فالاعتبار على هذا للموضوع وحده.

والثالث: إن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة دون النظر إلى مكان النزول بالذات، والاعتبار على هذا للزمان وحده، وهذا الاصطلاح الثالث هو أشهر وأصح ما قيل في هذا الموضوع.

وبناءً على ذلك فإن كل ما نزل من القرآن من قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يسمى مكياً سواء نزل في مكة أو في الطائف أو في أي جهة أخرى، وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني، سواء نزل بالمدينة أو في الأسفار والغزوات أو في مكة في عام الفتح.

وقد تجد في القرآن سوراً نزلت كلها قبل الهجرة كسورة (ق، وهود، ويوسف) وقد تجد فيه سوراً نزلت كلها بعد الهجرة كسورة (البقرة، آل عمران) وقد تجد فيه سوراً كلها مكية إلا بعض آيات منها، نزلت بعد الهجرة كسورة الأنعام، كلها مكي إلا ست آيات منها فهي مدنية نزلت بعد الهجرة، وقد تجد سوراً كل آياتها مدنية إلا بعض آيات منها فهي مكية كسورة الأنفال والتوبة.

ثانياً السبيل إلى معرفة المكي والمدني

ولعلك تسأل: كيف تسنى للعلماء أن يعرفوا تفصيل هذا الأمر وكيف أمكنهم أن يعلموا أن هذه الآية نزلت في مكة والأخرى بالمدينة، وأن هذه نزلت في الليل وتلك نزلت في النهار؟

والجواب: أن سبيل معرفة ذلك إنما هي الرواية الصحيحة الصادقة، وهي السبيل ذاتها التي وقف بها العلماء على تفسير القرآن بالمأثور كما مر بيانه، ومما سهل للعلماء ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم عنوا بالقرآن عناية فائقة عجيبة، فكانوا يؤرخون كل آية بوقت نزولها ومكانها، وربما اتخذوا من الأماكن والجبال والمفاوز التي يعلمونها أماكن ذكرى، بسبب آية أو آيات من القرآن قد نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى البخاري بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه".

وذكر الحافظ السيوطي في كتابه الإتقان عن كتاب الحلية بسنده أن رجلاً سأل عكرمة رضي الله عنه عن آية من القرآن فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل، وأشار على سلع [1]:

والخلاصة: أن رواية ذلك كله نقلت إلينا بالطرق العلمية وحسب قواعد مصطلح الحديث، وبذلك وجد العلماء بين أيديهم ما أطلق عليه فيما بعد اسم (علم المكي والمدني).

(١) الإتقان: ١٠٩.

ثالثاً خصائص كل منهما

علمـــت - عزيـــزي الدارس - مما سقناه لك سابقاً أن الآيات المكية من القرآن هي التي نزلت في صدر الإسلام ، وهي الفترة التي يحدها من الزمن ثلاثة عشـــر عاماً، أمضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة معذباً مضطهداً، يقابل الإيذاء والاضطهاد بالصفح وبالمسالمة مع المضي في الدعوة إلى الحق الذي أوحى إليه.

وعلمت أن الآيات المدنية، هي التي نزلت من بعد الهجرة وهي الفترة التي يحدهـــا من الزمن عشرة أعوام، بنى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الدولة الإســـلامية، حيث تكاملت مقوماتها الإدارية والدستورية والقانونية، وعلى هذا فـــإنك تجد خصائص كل من القسمين، مستمدة من طبيعة هاتين المرحلتين التي عاشها النبي صلى الله عليه وسلم قائماً بأمر الدعوة.

فالآيات المكية تمتاز بواحد مما يلي:

١- المناقشـــة والحجاج وعرض الأدلة على وجود الله ووحدانيته وعلى بعث الأجساد مع أرواحها من بعد الموت للحساب.

٢- ذكـــر قصص الأنبياء والأمم الخالية ودعوة الناس إلا الاعتبار بهم، إلا ما يتعلق بالحديث عن مريم وعيسى عليه السلام وقضية ولادته فقد نزل بعض ذلك في المدينة محاججاً لأهل الكتاب.

٣- تثبيـــت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى الصبر على الأذى تأســـياً بمـــن سبقه من الأنبياء والمرسلين الذين بعثوا لدعوة الناس إلى هذا

الدين ذاته.

٤- يغلب على الآيات المكية أنَ تكون قصيرة ذات وقع معين في الأذن والنفس، تبعث على الرهبة والخشية، وتشعر بمعنى الجلال والجبروت، كمعظم السور التي تقرأها في جزء تبارك وعم يتساءلون.

أما خصائص الآيات المدنية فهي ما يلي:

١- البحث في الأحكام والتشريعات المتعلقة بالعبادات والمعاملات والحدود وغيرها.

٢- الأمر بالجهاد والقتال والتعليق على الغزوات، وما تعلق بها من شأن الغنائم والأسرى والمنافقين.

٣- البحث في شؤون الحكم والشورى وضرورة الرجوع فيهما إلى الكتاب والسنة.

٤- يغلب على الآيات المدنية أن تكون طويلة فيها اللين والهدوء ووعد المسلمين بالفوز والصبر.

تلك هي خصائص الآيات المكية والمدنية، وأنت - عزيزي الدارس - تستطيع أن تميز بيَن السور المكية والمدنية بناء على معرفتك بتلك الخصائص، فحسبك أن تقرأ سورة البقرة، وتطلع على ما فيها من أحكام الصيام والحج والطلاق والقصاص لتعرف أن سورة البقرة مدنية، وحسبك أن تقرأ سورة (ق) وتقف على ما فيها من حجاج ونقاش مع المشركين لتعرف أن السورة مكية.

رابعاً الفائدة من معرفة هذا العلم

يـــتوقف عـــلى معـــرفة المكي والمدني من القرآن الكريم كثير من الفوائد العلمية، منها:

معرفة ما قد يوجد في القرآن من ناسخ ومنسوخ لنأخذ بالناسخ ونطرح المنسوخ (في مجال الأحكام التشريعية) وإنما تتوقف معرفة ذلك على معرفة تاريخ النزول.

واعلم أن وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن والسنة اقتضته ضرورة أخذ الناس بالتدرج في الأحكام الشرعية، والبعد بهم عن الطفرة في تشريع الأحكام.

ثم إن علم الناسخ والمنسوخ علم خاص من علوم القرآن بحث وكتب فيه علماء أصول التفسير وأصول الفقه وسيأتي بعد ذلك مفصلاً.

ومـــن فوائـــد ذلك أيضاً تتبع مراحل الدعوة الإسلامية، والإطلاع على كيفـــية تكـــامل بنية الفكر والتصور الإسلامي، وهو ما يهم الباحثين في تاريخ التشريع وأطواره.

ومـــن فوائده أنه يبصر القارئ والمفسر بمعنى الآية ويحجزه عن الخطأ في تفسيرها، ذلك أن من قرأ سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ولم يعلم زمن نزولها وهل هـــي مكية أم مدنية فإنه يحار في معناها، وقد يستخرج منها أن المسلمين لا يكلفون بالجهاد في أي من الأحوال وإنما عليهم أن يقولوا دائماً للآخرين: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾، فإذا علم أن هذه السورة إنما نزلت في مكة عندما قال بعض صناديد قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: تعال يا محمد نعبد إلهك يوماً وتعبد إلهنا يوماً، إذا عـــلم هـــذا أدرك أن هذه السورة إنما هي علاج لتلك المرحلة، وأنها ليست دليلاً على عدم مشروعية الجهاد الذي نزلت فيه آيات كثيرة أخرى في المدينة.

خامسا نقض الشبهات التي أثيرت حول موضوع المكي والمدني

لا يخفى أن أعداء القرآن كثيرون، وأنهم يتربصون به الدوائر، وينتهزون كل فرصة ليسددوا إليه سهام المطاعن، وإن من واجبنا أن نحمي العرين، ونقوم بواجب الدفاع في هذه المعمعة، ولن يتسنى ذلك - عزيزي الدارس - إلا إذا أعددنا العدة لذلك وتسلحنا بجميع الأسلحة وفي مقدمتها العدة العلمية، وذلك بالدراسة المتأنية لعلوم القرآن بصفة عامة وما يثيره هؤلاء المبطلون من شبهات بصفة خاصة، وفيما يلي عرض ونقد لبعض هذه الشبهات فتأمل ذلك - عزيزي الدارس - وأعد للبلاغ عدته.

الشبهة الأولى:

زعمهم أن في القرآن أساليب مختلفة تأثرت بالبيئة التي نزل فيها، وقد اعتمدوا في هذه الفرية على سلسلة من الدعاوي الكاذبة منها:

زعمهم أنه استخدم العنف مع أهل مكة، واللين والمهادنة في المدينة.

والحق أن القرآن الكريم بقسميه المكي والمدني قد اشتمل على الشدة والعنف واللين واللطف، لأن ضرورة التربية الرشيدة في إصلاح الأفراد والشعوب وسياسة الأمم والدول، تقتضي أن يمزج المصلح في قانون هدايته، بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشدة واللين.

فإن كان قد استخدام العنف رداً على أبي لهب في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ فإنه قال في سورة الشورى المكية أيضاً: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1].

(١) الشورى: ٤٣.

وكما وجد في الأسلوب المكي ذلك العنف فقد وجد أيضاً في الأسلوب المدني الذي يفترى على القرآن أنه هادئهم فيه، اقرأ في سورة البقرة: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1]؛

وقال فيها أيضاً: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[2].

وقال فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[3].

وإذا كانت الشدة في المكي أكثر منها في المدني فلأن أهل مكة بطبعهم كانوا شديدي المعارضة مسرفين في العناد والإباء، لم يتركوا باباً من الشر إلا دخلوه على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى أصحابه، و لم يكفهم أن يخرج من بلده وأهله بل وجهوا له الأذى في مهاجره.

ومنها زعمهم أنه استخدم مع أهل مكة أسلوباً بربرياً خارجاً عن حدود اللياقة والأدب مستندين في ذلك لسورة المسد أعني قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[4]، والواقع أن السورة لا تدل على ذلك السباب الذي زعموه ووصموا به القرآن لأن سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ غاية ما اشتملت عليه أنها إنذار ووعيد لأبي لهب وامرأته جزاء ما أساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه، كما يدل على ذلك سبب نزولها، فقد أخرج الشيخان والإمام أحمد والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه لم نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ

(١) البقرة: ٢٤.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩.

(٤) المسد: ١.

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1]، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير عن ابن زيد أن امرأة أبي لهب كانت تأتي بأغصان الشوك وتطرحها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذن فهذه السورة كانت تطبيقاً للعدل الإلهي في أن الجزاء من جنس العمل.

على أنه يلاحظ في آفاق القسم المكي، ظاهرة باهرة تسكت كل معاند، وتفحم كل مكابر في هذا الموضوع، وهي أن القسم المكي خلا تماماً من تشريع القتال والمخاشنة، كما خلت آياته في مكة على طولها من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التنكيل فلم يسمع للمسلمين فيها صلصلة لسيف، ولا قعقعة لسلاح، ولا زحف على عدو، إنما هو الصبر والعفو والمجاملة والمحاسنة على الرغم من إيغال الأعداء في أذاهم ولجاجهم في عتوهم، سباً وطعناً، وقتلاً ونهباً ومقاطعة ومهاترة ومصاولة ومكابرة.

الشبهة الثانية:

يقولون: إن قصر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية، يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكي والقسم المدني، ويدل على أن القسم المكي يمتاز بمميزات الأوساط المنحطة، ويدل على أن القرآن في نمطه هذا نتيجة

(١) الشعراء: ٢١٤.

لتأثر محمد بالوسط والبيئة، وتلك نتيجة الأمية في مكة والتعلم في المدينة.

أ- وحسبنا في إبطال هذه الفرية أن نذكر هؤلاء التائهين أن سورة الأنعام من طوال السورة وهي مكية، وسورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[1] من قصار السور وهي مدنية.

ب- وأن الاختلاف بين الطول والقصر غير دال على قطع الصلة، فكلاهما في أعلى مراتب الفصاحة يدرك ذلك من له تذوق بقواعد علوم البلاغة.

ج- توجد آيات مدنية في سور مكية، وآيات مكية في سورة مدنية ولا خلل ولا اضطراب، بل دقة انسجام وجميل ترتيب وما علم المناسبات بين الآيات والسورة إلا مرآة تكشف ما في ترتيب الآيات والسور من أحكام.

د- إن قصر السور والآيات المكية لا يدل على ما زعموه من امتياز القسم المكي بمميزات الأوساط المنحطة، بل العكس هو الصحيح فإن القصر مظهر من مظاهر الإيجاز، والإيجاز مظهر رقي المخاطب وآية على فهمه وذكائه، إذ يكفيه من الخطاب أقصره، بخلاف من كان دونه ذكاء وفهماً فلا بد في إفهامه من الإطناب والبسط، فإن دل قصر الخطاب في مكة على شيء فإنما يدل على نباهة القوم وألمعيتهم، وقد كانوا كذلك فإنهم في الذؤابة من قبائل العرب ذكاء وألمعية وفصاحة وشرفاً.

هـ- إن تحدي القرآن كما هو موجود في سور مكية كسورة يونس والإسراء هو موجود كذلك في سورة مدنية كسورة البقرة.

الشبهة الثالثة:

يقولون: إن القسم المكي قد خلا من التشريع والأحكام، على حين أن القسم المدني مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام، وذلك يدل على أن القرآن

---

(١) النصر: ١.

من وضع محمد وتأليفه تبعاً لتأثره بالوسط الذي يعيش فيه! فعندما كان في مكة بين أميين خلا كتابه من العلوم والمعارف العالية، ولما حل بالمدينة بين أهل الكتاب المثقفين جاء كتابه مليئاً بتل العلوم والمعارف.

ومما ينقض هذه الشبهة ما يلي:

أ- إن القسم المكي لم يخل جملة من التشريع والأحكام، بل عرض لها ولكن بطريقة إجمالية، كما في الوصايا العشر من سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[1]، إلى تمام ثلاث آيات بعدها، فقد أشار على مقاصد الدين الخمسة حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، على أن التشريع بمعناه العام يشمل كل ما شرع الله لعباده، مما يقربهم إليه ويعرفهم به، فشمل العقائد والأخلاق والمعاملات وغير ذلك، لكنه صار عرفاً في تنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض، وهذا موجود في الوصايا العشر.

ب- تفصيل التشريع في المدينة ليس نتيجة لما زعموه، بل تمشياً مع الحكمة الرشيدة في سياسة الأمم، فلا بد من التمهيد قبل التوجيه، والإجمال قبل التفصيل، وذلك أن الطفرة نتيجتها الخيبة، والتدريج نتيجته النجاح والتوفيق، وتقديم الأهم على المهم واجب في نظر الحكمة.

ج- إن ما زعموه لو كان صحيحاً لظهر أثر أهل الكتاب المدنيين فيمن معهم من عرب أهل المدينة، وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة، ولكانوا هم الأحرياء بالنبوة والرسالة، ولسبق محمداً إليها كثير من غيره من فصحاء العرب وتجار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب في المدينة والشام أيما اختلاط.

---

(١) الأنعام: ١٥١.

د- إن القـــرآن الكـــريم تحدى الناس كافة مكيين ومدنيين، فهلا كان من أهل المدينة هؤلاء من يستطيعون أن يجاروه ولو في مقدار سورة قصيرة واحدة، لو كانوا كما يزعم أولئك المبطلون مصدر الإلهام والتعليم؟

لقـــد كـــان في مكة الأميون والبلغاء، وفي المدينة أهل الكتاب والعرب والأمـــيون، فكـــان أهـــل مكة يلمحون بذكاء خارق الإشارات إلى التعميم والتفصـــيل المرتقـــب مـــن مـــثل قوله تعالى في سورة فصلت المكية: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْـــرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[1]، بل إن التدرج بدأ في مكة وانتهى في المدينـــة عندما قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، ثم توالت الآيات في التدرج في تحريم الخمر بالمدينة.

الشبهة الرابعة:

يقولون: إن القرآن أقسم كثيراً بالضحى، والليل، والتين والزيتون، وطور سنين، وكثير من المخلوقات، ولا ريب أن القسم بالأشياء الحسية يدل على تأثر القـــرآن بالبيئة في مكة، لأن القوم فيها كانوا أميين، لا تعدو مداركهم حدود الحســـيات، أمـــا بعـــد الهجرة واتصال محمد بأهل المدينة، وهم قوم مثقفون مستنيرون، فقد تأثر القرآن بالوسط الراقي وخلا من تلك الأيمان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة.

ومما يبطل هذه الشبهة ما يلي:

أ- إن القســـم بـــالأمور الحسية لم يكن مرده إلى انحطاط القوم، بل إلى رعاية مقتضـــى الحال فيما سبق القسم لأجله، وقد تفشت في القوم عقائد الشرك فلم يكن من سبيل إلى استئصالها إلا بلفت عقولهم إلى ما في الكون من خلق

(١) فصلت: ٦ ، ٧.

الله وشـئون الله، وفـتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الله المحيطة بهم ليصلوا من وراء إلى ذلك إلى الإيمان بالله وحده وإلى عبادته وحده.

ب- مـا مـن مُحَـس وَقَعَ مُقسماً به في إلا وفيه أسرار عجاب تنأي به عن السذاجة والبساطة، وتشهد ببراعة المخاطبين به وتفوقهم في الفهم والذكاء والبيان، لأن في القسم به إشارة إلى تلك الأسرار العظيمة التي أودعها الله فيه وهذه الأسرار لا يدركها إلا اللبيب ، ولا يفهمها إلا من كمل عقله وسلم ذوقـه، كما قال تعالى في سورة الواقعة المكية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾(1).

لقد أقسم الله جل وعلا بالضحى والليل إذا سجى، وفي هذا القسم إشارة إلى أن تنزل الوحي أشبه بضحوة النهار، وأن فترة الوحي أشبه بهدأة الليل.

وسـبب نزول هذه الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم فتر عنه الوحي مرة فرماه أعداؤه بأن ربه ودعه وقلاه أي تركه أو أبغضه، فنزلت هذه الآيات مصـدرة بهذا القسم، مشيرة إلى أن ما كان من سطوع الوحي على قلبه بمنزلة الضحى، وأن ما عرض بعد ذلك من فتر الوحي فإنه بمنزلة الليل إذا سجى، فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالتسليم والرضا لما فيهما من نفع للإنسان بالسعي والحـركة في النهار والنوم والاستجمام بالليل فيجب أن يتقبلوا ما يجري على محمد صلى الله عليه وسلم من نزول الوحي وفترته للمعنى الذي سلف.

وأقسـم بالـتين إشارة إلى العهد الأول للإنسان، حيث آدم، وبالزيتون إشـارة إلى العهد الثاني حيث نوح، وقد أغرق الله الأرض، ولم يبق فيها جافاً سـوى الزيتون، وطور السنين تذكيراً بعهد موسى، والبلد الآمين تذكيراً بتلك

(1) الواقعة: ٧٥، ٧٦.

الشـــريعة الغراء حيث نشأ محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم.

وهكـــذا كالقسم بالعصر الذي ينشط فيه الإنسان والفجر الذي يبدأ فيه نشـــاطه، واللـــيالي العشر التي فيها ليلة القدر، هي خير من ألف شهر، والنجم الـــذي يقتدى به ويهتدي إشارة إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ومعراجه، وكن يقظـــاً مـــتأملاً في سائر الأقسام، فسوف تجد فيها من الأسرار العجاب ما لا يدركه إلا من كمل عقله وسلم ذوقه.

الشبهة الخامسة:

يقولـــون: إن القرآن في قسمه المكي قد خلا من الأدلة والبراهين بخلاف قسمه المدني فإنه ملئ بالأدلة مدعم بالحجة، وهذا برهان جديد على تأثر القرآن بالوسط الذي خاطبه محمد صلى الله عليه وسلم، وإبطال هذه الشبهة فيما يأتي:

إن دعـــاوي خلو المكي من الأدلة والبراهين دعوى باطلة، وليقرؤا قوله تعالى في ســـورة الطور المكية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[1]، فهذا هـــو الاستقراء التام الذي يعتبر من أقوى البراهين، فإذا كان الاحتمال منحصراً في ثلاثة فروض بطل منها اثنان، تعين الثالث بداهة، وليقرؤا السبر والتقسيم في سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الإِبِـــلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَـــامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى

(١) الطور: ٣٥.

عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

ولـيقرؤا التسليم بفرض المحال جدلاً في سورة المؤمنون المكية: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّـهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [2].

وليقرؤا التدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في سورة العنكبوت المكـية في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَـابَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[3]. أو التدليل على البعث في سورة فصلت المكية في مـثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

أو في سـورة ق المكية في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[5]، وهكذا يتبين لنا أن دعاواهم أساسها الجهل والفساد والطغيان [6].

(١) الأنعام: ١٤٣، ١٤٤.

(٢) المؤمنون: ٩١.

(٣) العنكبوت: ٤٨، ٤٩.

(٤) فصلت: ٣٩.

(٥) ق: ١٥.

(٦) انظر هذه الشبه في كتاب مناهل العرفان للزرقاني.

الفصل الثاني: الوقف والابتداء

أولاً: أهمية معرفة الوقف والابتداء

الوقف والابتداء من مهمات علم التجويد، وبهما يستدل على فقه القارئ وبصره بالقراءة، فلا بد من معرفتهما لأن الترتيل الذي أمر الله تعالى به يتمثل في تجويد الحروف ومعرفة الوقوف، ويلزم من معرفة الوقف معرفة الابتداء، فمن عرف متى يقف عرف متى يبتدئ، ومرد معرفة الوقف والابتداء إلى معرفة القارئ بكتاب الله ودرايته بمعنى كلماته، وإلى معرفته التامة بعلوم العربية من نحو وصرف وغيره ثم على ذوقه الرفيع المبني على تلك المعرفة في اختيار ما يقف عليه أو يبتدئ به.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم، فنعلم حلالها وحرامها، ولا ينبغي أن يوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم القرآن اليوم، ولقد رأينا اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما أمره ولا زجره، وما ما ينبغي أن يوقف عنده منه.

ووجه الدلالة أن قوله رضي الله عنه، ما ينبغي أن يوقف عنده منه يدل على أنهم رضوان الله عليهم كانوا يتعلمون الوقف ويعتبرون ذلك من تمام تعليمهم للقرآن.

وعن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1]، قال: الترتيل: تجويد الحروف ومعرفة الوقوف.

---

(١) المزمل: ٣.

ثانياً أقسام الوقف

وقد اصطلح علماء القرآن على تقسيم الوقف إلى ثلاثة أقسام:

١- **تام**: وهو ما يتم عنده الكلام، وينقطع عما بعده لفظاً ومعنًا، وهو أكثر ما يكـــون في رؤوس الآي وانقضاء القصص وأواخر السور، ومثاله الوقف على: ﴿بِسْـــمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(١)، والابتداء بـــ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢)، أو الوقـــف على: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣)، في أول البقرة والابتداء بـــ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾(٤)،

٢- **حسن**: هو الوقف عند معنى مفيد ولكن لم يتم، كالوقف على (الحمد لله) والابتداء بـــ (رب العالمين).

٣- **وقبيح**: وهو الوقف قبل استكمال المعنى كالوقف قبل الاستثناء.

واعـــلم أنـــه بسبب عدم معرفة الوقف والابتداء قد انتشر الجهل إلى حد يفســـد المعنى، ذلك لأن الوقف قبل تمام المعنى مفسد، وكذلك وصل ما يجب الوقف عليه مفسد أيضاً، وها بعض النماذج:

لو وصلنا قوله تعالى من سورة غافر: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِيـــنَ كَفَـــرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾(٥)، لفسد المعنى، ولهذا قال ابن عباس: يوقف عند قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ

---

(١) الفاتحة: ١.

(٢) الفاتحة: ٢.

(٣) البقرة: ٥.

(٤) البقرة: ٦.

(٥) غافر: ٧.

أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في سورة المؤمن مقدار ما يشرب الشربة من الماء.

وكذلك قوله: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[1]، لو لم تقف على ولد لفسد المعنى.

وإذا وقفنا عند قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ ثم ابتدأنا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾[2]، لكان ذلك كفراً إن تعمده من وقف على القول وابتدأ بمقول القول.

وأنبه إلى أنه قد يضطر القارئ عند انقطاع النفس إلى الوقف، وهذا له حكم الضرورات، فإن من المتقرر في قواعد الفقه أن الضرورات تبيح المحظورات، والضرورة تقدر بقدرها، ولكنه عليه أن يبتدئ بما لا تعلق له بما قبله لأنه مختار وليس بمضطر، وليس كل ما يتعسفه بعض المعربين أو يتكلفه بعض القراء أو يتأوله بعض أهل الأهواء مما يقتضي وقفاً أو ابتداء ينبغي أن يتعمد الوقف عليه، بل ينبغي تحري المعنى الأتم، والوقف الأوجه، فإن ذلك مما يفسد المعنى أحياناً، كوقف بعضهم على قوله ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ﴾ ويبتدئ: ﴿بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾[3]، لأنه يكون على لسان المتكلم مع أنه حكاية عن حال من أحوال المنافقين.

ولا بد للقارئ من معرفة بعض المذاهب المشهورة في الفقه والنحو والتفسير حتى لا يفسد المعنى بقراءته.

ولأئمة القراء مذاهب في الوقف والابتداء تطلب من كتب التجويد والقراءات.

---

(١) النساء: ١٧١.

(٢) آل عمران: ١٨١.

(٣) النساء: ٦٢.

الخلاصة

تعريف المكي والمدني:

وأرجـــح الأقوال فيه أن المكي هو ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعد الهجرة.

السبيل إلى معرفة المكي والمدني وهو الرواية الصحيحة الصادقة.

خصائص القرآن المكي:

١- محاجحة المشركين.

٢- ذكر قصص الأنبياء والأمم الخالية.

٣- تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم.

٤- قصر الآيات مع قوة وقعها.

خصائص القرآن المدني:

١- البحث في الأحكام والتشريعات.

٢- الأمر بالجهاد والتعليق على الغزوات.

٣- البحث في شؤون الحكم والشورى.

٤- طول الآيات مع اللين والهدوء.

الفائدة من معرفة هذا العلم:

١- معرفة الناسخ والمنسوخ.

٢- تتبع مراحل الدعوة الإسلامية.

٣- التبصير بمعاني الآيات.

آثار أعداء القرآن شبهات حول المكي والمدني مرجعها إلى الجهل بالقرآن واللغة أو الفساد والعناد، وهي شبهات داحضة لا تثبت أمام أدنى مناقشة علمية جادة.

- معرفة الوقف والابتداء من تمام تعلم القرآن.
- ينقسم الوقف إلى:

١-تام : وهو ما يتم عند الكلام وينقطع عما بعده لفظاً أو معنى.

٢-حسن: وهو الوقف عند معنى مفيد ولكن لم يتم.

٣-قبيح: وهو الوقف قبل استكمال المعنى.

- قد يترتب على الجهل بالوقف والابتداء إفساد لمعاني القرآن، والطعن في القارئ كما إذا تعمد الابتداء بقول للكافرين أو المنافقين.
- إذا انقطع النفس واضطر القارئ إلى الوقف جاز له ذلك اضطراراً على أن يبتدئ بما لا تعلق له بما قبله.

أسئلة التقويم الذاتي

١- بين الأقوال التي ذكرت في تعريف المكي والمدني وبين الراجح منها؟

٢- ما السبيل إلى معرفة المكي والمدني؟

٣- بين خصائص كل من القرآن المكي والقرآن المدني.

٤- ما الفوائد المتحققة من معرفة هذا العلم؟

٥- اذكـــر الشبهات التي أثيرت حول موضوع المكي والمدني، وكيف ترد على كل منها؟

٦- ما أهمية معرفة الوقف والابتداء؟

٧-ما أقسام الوقف؟ مع ذكر مثال لكل قسم.

٨- ما الذي يترتب على الجهل بالوقف والابتداء؟

٩- ماذا يفعل من انقطع نفسه في القراءة عند وقف قبيح؟

الوحدة السادسة

إعجاز القرآن وأقسامه

الأهداف الخاصة

يتوقع منك – عزيزي الدارس – بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على معرفة ما يلي: **الفصل الأول:**

١- معنى إعجاز القرآن.

٢- شروط تحقق الإعجاز.

٣- بطلان القول بالصرفة.

٤- وجوه إعجاز القرآن الكريم وتتمثل في:

أ- الإعجاز اللغوي. ب- الإعجاز التشريعي.

ج- الإعجاز العلمي.

الفصل الثاني:

١- تعريف القسم. ٢- صيغة القسم.

٣- فائدة القسم. ٤- المقسم به في القرآن.

٥- أنواع القسم. ٦- أحوال المقسم عليه.

٧- إجراء بعض الأفعال مجرى القسم.

الفصل الثالث:

١- تعريف الجدل. ٢- طريقة القرآن في المناظرة.

٣- أنواع مناظرات القرآن وأدلته.

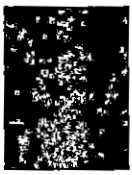

الفصل الأول: إعجاز القرآن

أولاً: معنى إعجاز القرآن

الإعجاز في اللغة: إثبات العجز أو نسبة العجز إلى الغير، وتسمى المعجزة معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها؛ لأنها أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعهودة.

وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله؛ ويتحقق الإعجاز بوجود التحدي، وقيام الدافع إلى رد هذا التحدي، وانتفاء المانع من ذلك.

وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم تحدى العرب بالقرآن على ثلاث مراحل:

١- تحداهم بالقرآن كله، في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحدياً يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

٢- ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

(١) الإسراء: ٨٨.

(٢) القصص: ٤٩.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾[1].

٣- ثم تحداهم بسورة واحدة منه في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]، وكرر هذا التحدي في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

وقد توافرت لدى العرب الدوافع لرد هذا التحدي الذي يعلنه عليهم من يشهد عليهم بالكفر، ويسفه أصنامهم ويفرق بهذا الدين بين الولد وأبيه.

ولم يكن لدى العرب مانع يحول بينهم وبين رد هذا التحدي لو كانوا يستطيعون، فهم أرباب الفصاحة والبلاغة، التي شهد بها الأولون والآخرون، وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعي عجز للغة العربية في ريعان شبابها وعنفوان قوتها.

والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل ولا يزال في موقف التحدي شامخ الأنف، فأسرار الكون التي يكشف عنها العلم الحديث ما هي إلا مظاهر للحقائق العليا التي ينطوي عليها سر هذا الوجود في خالقه ومدبره ، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه ، فصار القرآن بهذا معجزاً للإنسانية كافة.

---

(١) هود: ١٣، ١٤.

(٢) يونس: ٣٨.

(٣) البقرة: ٢٣.

ثانياً وجوه أعجاز القرآن الكريم

بعـد أن أجمع أهل العلم على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحـد مـن البشر أن يأتي بمثله، تعددت أقوالهم في وجوه إعجاز هذا الكتاب المـبارك، وقبل أن نشرع في بيان أهم هذه الوجوه، نبادر أولاً إلى تفنيد الزعم القائل بأن إعجاز القرآن كان بالصرفة.

ثالثاً بطلان القول بالصرفة

زعـــم النظام ومن تابعه كالمرتضى من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة، أي: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هـــذا الصـــرف خارقـــاً للعادة، أو أن الله سلبهم العلوم التي يحتاجون إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل هذا القرآن، ويؤول هذا القول إلى أن القرآن ليس معجزاً لذاته، وإنما يرجع إعجازه إلى هذا الصارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة أو إلى هذا العارض المفاجئ الذي عطل مواهبهم البيانية وقدرتهم البلاغية.

وهذا القول باطل من جملة وجوه:

أولاً : إنه لو صح لكان الإعجاز في الصرفة لا في القرآن ذاته وهو باطل بالإجماع.

ثانـــياً: إنه لو صح لكان تعجيزاً لا إعجازاً؛ لأنه يكون بمثابة ما لو قطعنا لسان إنسان وكلفناه بالكلام فهو من باب التعجيز وليس من باب العجز.

ثالـــثاً: قوله تعالى: ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾، فإنه يدل على عجـــزهم مـــع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم فإنه يصـــبح بمنزلـــة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى بالأمر الكبير الذي يحتفل بذكره.

رابعاً وجوه إعجاز القرآن الكريم

أ- الإعجاز اللغوي:

ويتمثل في النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب الأمر الذي شهد به أئمة البيان وسلاطين البلاغة سواء في العصر الأول أو فيما تلاه بعد ذلك من العصور، وكلما ارتفعت اللغة وتسامت وقفت على أعتاب لغة القرآن كسيرة صاغرة، تنحني أمام أسلوبه إجلالاً وإكباراً، ولقد سجل التاريخ هذا العجز على اللغة لعربية في أزهى عصورها وأرقى أدوارها حين نزل هذا القرآن، وتتابعت القرون لدى أهل العربية، وظل الإعجاز القرآني اللغوي راسخاً كالطود الشامخ تُزل أمامه الأعناق خاضعة لا تفكر في أن تدانيه فضلاً عن أن تساميه! وسيظل الأمر كذلك إلى يوم الدين.

ولن ينسى التاريخ موقف الوليد بن المغيرة من القرآن ومقالته فيه، فقد روى الحاكم والبيهقي وغيرهما عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلوا وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: والله

لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾[1].

وكما يتمثل الإعجاز اللغوي في النظم البديع يتمثل في الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية سواء في نظامه الصوتي أو جماله اللغوي، أو مخاطبته للعقل والقلب معاً، أو جودة سبكه وإحكام سرده، أو براعته في تصريف القول وتفننه في ضروب الكلام، أو جمعه بين الإجمال والبيان، ووفائه بالمعنى مع القصد في اللفظ.

تأمل في المزج بين مخاطبة العقل والقلب معاً في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، لترى كيف يسوق هذا الدليل العقلي سوقاً يمس شغاف القلوب ويمتع الوجدان والعاطفة.

وانظر في قصة يوسف إلى مزج العظات البالغة بالبراهين الساطعة على وجود الاعتصام بالعفاف والشرف، وذلك في مقابلة دواعي الغواية الثلاث بدواعي العفاف الثلاث في قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[3]، ألست ترى مزيجاً حلواً سائغاً يخفف على النفوس تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية.

وكما يتمثل الإعجاز اللغوي في النظم البديع والأسلوب العجيب، يتمثل

---

(١) المدثر: ١١.

(٢) فصلت: ٣٩.

(٣) يوسف: ٢٣.

كذلك في الإيجاز الراقي والجزالة المذهلة، الأمر الذي كان يحمل البدوي على أن يخر ساجداً لله عز وجل أمام عظمة هذا الكتاب وشموخه، يروى أن الأصمعي مر ذات يوم بجارية خماسية أو سداسية، وسمعها تنشد أبياتاً من الشعر فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك؟ فقالت له: ويحك أويُعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1]، ثم قالت له: لقد جمعت هذه الآية على وجازها بين أمرين، ونهيين، وخبرين وبشارتين، فقال الأصمعي: فأعجبت بفهمها وإدراكها أكثر مما أعجبت بشعرها.

ب- الإعجاز التشريعي في القرآن:

ومن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم الإعجاز التشريعي، ويتمثل فيما يتضمنه من هداية تشريعية كاملة تفوق كل تشريع وضعي عرفته البشرية على مدار القرون، وليس عجباً أن تفوق هداية الوحي أهواء البشر ولا أن تفوق شريعة الخالق شرائع المخلوقين، فقد تضمن القرآن الكريم بين دفتيه أصول العقائد وأحكام العبادات والمعاملات والآداب، واحتوى على منظومة تشريعية متكاملة في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقف أمامها قادة هذه العلوم في واقعنا المعاصر مذهولين، وظلت أعناقهم لها خاضعين، وهي تكفل لمن تبعها الحياة الطيبة - في هذه الدنيا - والفوز بنعيم الخلد في الآخرة.

تأمل في منظومة التشريعات العقابية في الإسلام، وانظر كيف تمخض تطبيقها عن مجتمع قد اختفى منه شبح الجريمة، وما وقع فيه من أحداث نادرة

(١) القصص: ٧

كان حديث الركبان لشذوذه وغرابته.

إن تاريخ الجيل الأول يذكر لنا قصة ماعز والغامدية[1] لأنها أحداث نادرة وتمثل شذوذاً عن المألوف العام في المجتمع يوم ذاك، ترى كم عدد هؤلاء الزناة تحت خيمة العلمانية وتحكيم القوانين الوضعية، وكم عددهم في المجتمعات الغربية حيث لا دين ولا شريعة.

تأمل في تخبط العالم في تعامله مع الخمر بين إباحة وتحريم، ثم قارن ذلك مع موقف الإسلام الثابت من الخمر وسياسته الحكيمة في التدرج في تحريمها أول مرة لتعرف الفرق بين هدى الله وبين أهواء الذين لا يعلمون، لقد حرمت أمريكا الخمر أربع عشرة سنة ثم عادت إلى إباحتها بعد أن تزايد عدد المدمنين والمدمنات لأنها حاولت أن تتعامل مع الطبيعة البشرية بعيداً عن مفاتيحها الربانية، وحرم الإسلام الخمر وفقاً لمنهاجه الرباني فلا تزال الخمر حراماً بتحريمه في شريعة الإسلام وفي ضمائر المسلمين على مدى هذه القرون المتعاقبة.

تأمل كيف أقام الإسلام حكمه على أساس العدل والمساواة والشورى، وكيف جعل من العدل قيمة مطلقة لا تتأثر بحب الذات ولا بعاطفة القرابة ولا بالعوامل الاجتماعية من فقر وغنى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[2].

---

(١) هما رجل وامرأة زنيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واعترف بذنبهما وتابا إلى الله وأقيم عليهما حد الرجم.

(٢) النساء: ١٣٥.

وكيف جعل من الشورى سمة عامة من سمات المجتمع المسلم، وليس مجرد قاعدة من قواعد نظام الحكم فيه، فالسورة التي تسمت باسمها في القرآن الكريم سورة مكية توجه الخطاب بها إلى جماعة المسلمين قبل أن تقوم لهم دولة أو تعقد لهم راية، تأمل في ذلك كله، وقارن بينه وبين قوانين التفرقة العنصرية وروح الأثرة الأنانية والتعصب البغيض الذي تتجرع البشرية غصصه في غيبة الشريعة وتراجعها عن الحاكمية والمرجعية.

بل تأمل في شريعة الإسلام في الحرب والعلاقات الدولية، ثم ارجع البصر كرتين في آدابه ودستوره الحضاري في هذا المجال، فقد نهى عن كل صور التخريب التي لا تقتضيها ضرورة القتال، وحرم قتل الأطفال والنساء والزمنى[1]، وكل من لم يشارك في القتال وكيف جعل من ذلك كله ديناً يتعبد به؟ ولا يملك أحد أن يخرج عليه ثم قارن ذلك بحروب الإبادة الجماعية سياسة الحصار والتجويع التي يقودها العالم الغربي في القرن العشرين، باسم الشرعية الدولية وتحت مظلة الأمم المتحدة.

والخلاصة: أن القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال، وسيظل إعجازه التشريعي قريناً لإعجازه العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد، ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث في العالم أثراً غير وجه التاريخ.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[2].

---

(١) المبتلون بالعاهات.

(٢) طه: ١٢٣، ١٢٤.

ج- الإعجاز العلمي في القرآن:

ويقصد به عدم تعارض شيء من حقائق العلم مع مقررات القرآن الكريم، كما يقصد به مطابقة الحقائق العلمية لما ورد في شأنها من الآيات القرآنية.

لا يخفى أنه ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما على مثله آمن الناس، ولما كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم باقية ما بقيت هذه الحياة في امتدادها الزماني، مخاطبة لأهل الأرض قاطبة في امتدادها المكاني، كان لابد أن يتضمن القرآن الكريم - وهو معجزة الإسلام الخالدة - من وجوه الإعجاز ما تقام بمثله الحجة على أهل كل عصر على امتداد الزمان والمكان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان الإعجاز اللغوي تقام بمثله الحجة على من ينطقون اللغة العربية، ويتذوقون فنونها وأساليبها فلا بد من وجوه أخرى من الإعجاز تقام بمثلها الحجة على غير العرب، بل وعلى العرب أنفسهم في أطوار انحطاطهم اللغوي وتراجعهم البياني، وهذا هو دور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

فلقد تضمن القرآن الكريم أنباء عن الكون والإنسان والحياة، وأخبر أن لهذه الأنباء زمنًا وعقاب، فإن بعضها الآخر يتعلق بأحداث تقع في هذه الحياة منها ما وعد به المؤمنون من نصر وتمكين، ومنها ما يتعلق بأشراط الساعة وما يكون بين يديها من أحداث جسام، ومنها ما يتعلق بتأويل بعض الآيات القرآنية التي تتضمن إشارات إلى بعض الحقائق العلمية، وهذا الأخير هو موضع الشاهد في هذا المقام.

هذا وإن زمن استقرار هذه الأنباء هو زمن تكشفها للعيان ورؤيتها حقيقة مشهودة في الواقع المحسوس، ولقد وعد الله جل وعلا بأن يرى عباده من هذه

الآيات ما يتبين لهم معه أن هذا القرآن حق من عند الله فقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2]، ولتتأمل معي -عزيزي الدارس- ملياً في هذه الحقائق.

لقد تخبطت البشرية طويلاً في الإجابة على هذا السؤال: مما يخلق الولد؟ فمرة قالوا: إنه يخلق من دم الحيض، ومرة قالوا: إنه يخلق من ماء الرجل وحده، ومرة قالوا: بعكس ذلك، إلى أن وصلوا في النهاية إلى أنه يخلق من كل من ماء الرجل وماء المرأة بعد رحلةٍ من الأبحاث والدراسات، وبواسطة أعقد الأجهزة والمختبرات، لكن موقف القرآن الكريم كان ثابتاً محدداً في هذه القضية منذ اللحظة الأولى، وكان علماء القرآن بمعزل عن هذه التخبطات بما يجملونه من نور الوحي المعصوم، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾[4].

ثم بين هذه النطفة في مقام آخر فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[5]، أي نطفة أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة، فمن ذا الذي أخبر محمداً صلى الله عليه وسلم وهو النبي الأمي بهذه الحقائق التي لم يصل إليها العالم إلا بعد سلسلة من التخبطات وبعد اكتشاف

(١) النمل: ٩٣.

(٢) فصلت: ٥٣.

(٣) عبس: ١٨، ١٩.

(٤) النجم: ٤٥، ٤٦.

(٥) الإنسان: ٢.

أعقد الأجهزة والوسائل.

لقد ظلت البشرية تعتقد أن الجنين يتكون في الرحم دفعة واحدة، ولا يمر خلقه بأطوار، ولا يحدث له في الرحم إلا مجرد تكبير، ولم تصل إلى حقيقة مرور الجنين في أطوار مختلفة من الخلق إلا مؤخراً بعد اكتشاف المجاهر والمكبرات، ولكن القرآن الكريم ظل بمنأى عن هذا التخبط، وعاش المؤمنون به بمنأى عن هذه التوهمات، فلقد قرر منذ اللحظة الأولى أن الجنين يمر بأطوار مختلفة من الخلق، فقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾[2]، ثم بين هذه الأطوار بالتفصيل فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[3].

فمن أعلم محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه التفصيلات والدقائق عن هذا العالم المجهول، الذي يتوارى خلف ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة الغشاء المعروف بالرهل؟

وفي مجال الحديث عن نقص الأوكسجين في طبقات الجو العليا وما يؤدي إليه من ضيق في الصدور وحرج في التنفس يأتي قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً

(١) نوح: ١٣، ١٤.

(٢) الزمر: ٦.

(٣) المؤمنون: ١٢- ١٤.

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[1].

وفي مجال وحدة الكون وكونه كان شيئاً واحداً متصلاً من غاز ثم انقسم إلى سدائم، وأن عالمنا الشمسي كان نتيجة لهذه الانقسامات يأتي قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، وتأمل توجيه الخطاب في صدر هذه الآية إلى الذين كفروا وتذييلها بدعوتهم إلى الإيمان، وربما كان بعض الحكمة في ذلك أن هؤلاء القوم أسبق إلى اكتشاف هذه الحقيقة من غيرهم فلعل تذكيرهم بها يسوقهم إلى الإيمان.

ولسنا بصدد استقراء هذه الإشارات القرآنية فإنها أكثر من أن يستوعبها الحصر ولا يزال هذا القرآن يهب كنوزه ويتفجر عطاؤه ولا تنقضي عجائبه.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن القرآن كتاب هداية وإرشاد في المقام الأول، وأن ما ورد فيه من إشارات علمية إنما ورد في مقام الهداية والإرشاد، وأن مقصودها الأول أن تكون دليلاً على عصمة هذا الكتاب وأن الذي جاء به رسول من عند الله.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أن الناس في قضية الإعجاز طرفان وواسطة بينهما فمنهم من غلا في هذا الباب، فأخذ يلهث وراء كل جديد في نظريات العلم يفسر به بعض آيات الكتاب لعله يتكلف إعجازاً أو يعتسف برهاناً مع ما في ذلك من التغرير بمصداقية هذا الكتاب عندما تتبدل هذه النظريات ويظهر عوار هذه التفسيرات.

---

(١) الأنعام: ١٢٥.

(٢) الأنبياء: ٣٠.

ومنهم من فرط فأغلق هذا الباب بالكلية فراراً من المحاذير التي تورط فيها الفريق الأول مع ما في ذلك من تفويت الإفادة من هذا الوجه الحيوي من وجوه الإعجاز.

والمتوسطون بين هؤلاء وهؤلاء من أحكموا ضوابط البحث في هذا المجال، ففرقوا بين الحقائق والنظريات، ولم يربطوا كتاب الله بنظريات متغيرة، كما لم يتعسفوا في تفسير الآيات القرآنية لتلتقي مع الحقائق العلمية، بل أقاموا منهجهم في البحث على ثلاث دعائم:

الأولى: شرعية مستيقنة، وسبيلهم إلى ذلك تحقيق هذا الجانب مع الثقات العدول الفحول من علماء الشريعة.

الثانية: الحقيقة الكونية، وفيها يحرصون على التثبت من أنهم أمام حقيقة كونية قد اتفق عليها قادة هذا التخصص على مستوى العالم، وأجمعوا على تجاوزها مرحلة الاحتمالات والنظريات.

الثالثة: وجه الإعجاز، ويشترط فيه ألا يتضمن الربط بين الحقيقتين الكونية والشرعية نوعاً من التكلف أو التعسف، أو الخروج على الظاهر المتبادر بغير برهان ساطع.

وإن من بوادر الخير في هذا المقام تأسيس هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة، وهي أول هيئة علمية متخصصة تعنى بدراسة وتحقيق هذا الوجه من وجوه الإعجاز، وقد شرفت هذه الهيئة برئاسة فضيلة الشيخ عبد المجيد الزنداني ذلك الرجل الذي شغف قلبه بحب المعجزات، وتوشك أن تنتهي إليه ريادة هذا العلم في هذا الزمان.

أولاً: تعريف القسم

الأقسام جمع قسم بمعنى الحلف واليمين.

ويعرف الحلف بأنه: ربط النفس بالامتناع عن الشيء أو الإقدام عليه بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً.

وسمي الحلف يميناً لما جرت عليه عادة العرب من أن أحدهم كان يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف.

ثانياً: صيغة القسم:

الصيغ الأصلية للقسم أن يؤتي بالفعل (أقسم أو أحلف) متعدياً بالباء إلى المقسم به كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾(١)، وقد يحذف فعل القسم ويكتفي بالباء أو يؤتي عوضاً عنها بالواو في الأسماء الظاهرة أو التاء مع لفظ الجلالة مثل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾(٢)، ومثل: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾(٣).

ثالثاً: فائدة القسم:

القسم من المؤكدات المشهورة يساق للمنكر أو المتردد، فهو يمكن الشيء في نفس المخاطب ويقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد، فالقسم في

(١) النحل: ٣٨.

(٢) الليل: ١.

(٣) الأنبياء: ٥٧.

كلام الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات،ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة.

رابعاً: المقسم به في القرآن:

أقسم الله تعالى في القرآن بذاته أو مخلوقاته، وإقسامه تعالى ببعض مخلوقاته دليل على أنها من عظيم آياته.

وقد أقسم الله تعالى بذاته في القرآن في سبعة مواضع: منها قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾[2]، والمواضع الأخرى في سور: (سبأ: ٣، يونس: ٥٣، الحجر: ٩٢، النساء: ٦٥، المعارج: ٤٠).

وسائر القسم في القرآن بمخلوقاته تعالى مثل: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾[3]، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[4].

ولله أن يحلف بما شاء على ما شاء وليس لأحد من الخلق أن يحلف إلا بالله تعالى، فإن من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك.

خامساً: أنواع القسم:

القسم إما ظاهر، وإما مضمر:

١- فالظاهر: هو ما صرح فيه بفعل القسم، وصرح فيه بالمقسم به، ومنه ما حذف فيه فعل القسم، كما هو الغالب اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو التاء.

---

(١) التغابن: ٧.

(٢) مريم: ٦٨.

(٣) الليل: ١.

(٤) الفجر: ١، ٢.

وقد تدخل (لا) النافية على فعل القسم في بعض المواضع، كقوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1].

فقيل: (لا) في الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام، والتقدير مثلاً، لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب، ثم استأنف فقال: أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، إنكم ستبعثون.

وقيل: (لا) لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكني أسألك غير مقسم، أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم.

وقيل: (لا) زائدة وجواب القسم في الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد: ﴿أيحسب الإنسان﴾ إلخ، والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن.

٢- والقسم المضمر هو ما لم يصرح فيه بفعل القسم ولا بالمقسم به، وإنا تدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[2]، أي والله لتبلون.

٣- والقسم قد يكون على جملة خبرية — وهو الغالب — كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[3]، وقد يكون على جملة طلبية في المعنى كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4]، لأن المراد التهديد والوعيد.

---

(١) القيامة: ١، ٢.

(٢) آل عمران: ١٨٦.

(٣) الذاريات: ٢٣.

(٤) الحجر: ٩٢، ٩٣.

٤- وجواب القسم يذكر تارة -- وهو الغالب -- وتارة يحذف، كما يحذف جواب (لو) كثيراً كقوله: ﴿كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾[١]، وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب، لأنه يدل على التفخيم والتعظيم، فالتقدير مثلاً: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم ما لا يوصف من الخير، فحذف جواب القسم، وقد يحذف الجواب لدلالة المذكور عليه، كقوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[٢]، فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[٣]، إلخ والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن.

سادساً: أحوال المقسم عليه:

المقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها.

وقد أقسم الله تعالى على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها، فتارة يقسم على التوحيد كقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفّاً فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾[٤].

وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[٥].

---

(١) التكاثر: ٥.

(٢) القيامة: ١، ٢.

(٣) القيامة: ٣.

(٤) الصافات: ١-٤.

(٥) الواقعة: ٧٥- ٧٧.

وتارة على أن الرسول حق كقوله: ﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

وتارة على الجزاء والوعد، كقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً فَالْحَامِلاتِ وِقْراً فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[2].

وتارة على حال الإنسان، كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾[3].

سابعاً: إجراء بعض الأفعال مجرى القسم:

إذا كان القسم يأتي لتأكيد المقسم عليه فإن بعض الأفعال يجري مجراه إذا كان سياق الكلام في معناه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾[4]، فاللام في قوله: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ لام القسم، والجملة بعدها جواب القسم، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف.

---

(١) يس: ١-٢.

(٢) الذاريات: ١-٦.

(٣) الليل: ١-٤.

(٤) آل عمران: ١٨٧.

الفصل الثالث: جدل القرآن

أولاً: تعريف الجدل:

الجدل والجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزم الخصم، أصله من جدلت الحبل: أي أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه.

وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[1] أي خصومة ومنازعة.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

ومثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق وإقامة البرهان على صحته، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين، وإلزام المعاندين بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾[3].

ثانياً: طريقة القرآن في المناظرة:

والقرآن الكريم تناول كثيراً من الأدلة والبراهين التي حاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها

---

(١) الكهف: ٥٤.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) الكهف: ٥٦.

بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التركيب لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث.

ولم يسلك القرآن - في الجدل - طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها، من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزءين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء.

أ- لأن القرآن جاء بلسان العرب، وخاطبهم بما يعرفون.

ب- ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة.

ج- ولأن تـــرك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والألغـــاز لا يفهمـــه إلا الخاصة، ولا يلجأ إليه إلا العاجز عن إقامة الحاجة بالظاهر الجلي فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يـــنحط إلى الأغمـــض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن لغزًا، وهو على طريقة المناطقة ليس سليماً من كل وجه، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القـــرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية.

قـــال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين): وما يذكره النظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شيء منها على عينه، وإنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، فإنا إذا قلنا: هذا محدث، وكل محدَث فلا بد له من محدِث، أو ممكـــن والممكـــن لا بد له من واجب، إنما يدل هذا على محدث مطلق، أو

واجـــب مطلق لا يمنع تصوره، من وقوع الشركة فيه" وقال: "فبرهانهم لا يدل عـــلى شـــيء معين بخصوصه، لا واجب الوجود ولا غيره، وإنما يدل على أمر كلي، والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله" وقال: هذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَـا وَبَـثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يدل عـــلى المعين كالشمس التي هي آية النهار، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَـيْنِ فَمَحَوْنَـا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[2]، فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه" فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولي أو تمثيلي، بل هي مستلزمة لمدلولها عيناً، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول، وانتقال الذهن منها إلى المدلـــول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها **وهذا النوع من الاستدلال بدهي يستوي في إدراكه كل العقول.**

---

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) الإسراء: ١٢.

ثالثاً: أنواع من مناظرات القرآن وأدلته:

أ- مـا يذكره سبحانه وتعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر؛ للاسـتدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهذا النوع كثير في القرآن.

فمنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

ب- ما يرد به على الخصوم ويلزم به أهل العناد، ولهذا صور مختلفة:

* منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم، وتسلم بها العقول حتى يترف بما ينكره، كالاستدلال بالخلق على وجود الخالق في مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ

(١) البقرة: ٢١، ٢٢.

(٢) البقرة: ١٦٣، ١٦٤.

تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

* ومنها الاستدلال بالمبدأ على المعاد، كقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2]، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾[4]، ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾[5].

* ومنها إبطال دعوي الخصم بإثبات نقيضها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[6]، رداً على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[7].

---

(١) الطور: ٣٥- ٤٣.

(٢) ق: ١٥.

(٣) القيامة: ٣٦-٤٠.

(٤) الطارق: ٥-٨.

(٥) فصلت: ٣٩.

(٦) الأنعام: ٩١.

(٧) الأنعام: ٩١.

* ومنها السبر والتقسيم، بحصر الأوصاف، وإبطال أن يكون واحد منها علـة للحكم، كقوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّـا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَـمُ مِمَّـنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

* ومـنها إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف بـه أحد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَـنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]، فنفي التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد، وأن التولد إنما يكون من اثنين وهـو سـبحانه لا صاحبة له، وأيضاً فإنه خلق كل شيء ، وخلقه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكـون فـاعلا بإرادته ، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتـنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور كالحار والبارود، فلا يجوز إضافة الولد إليه.

وهـناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة، كمناظرات الأنبياء مع أممهم، أو مناظرات المؤمنين مع المنافقين ، وما شابه ذلك.

---

(١) الأنعام: ١٤٣، ١٤٤.

(٢) الأنعام: ١٠٠، ١٠١.

الخلاصة

الإعجاز في اللغة: إثبات العجز.

وإعجاز القرآن: إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله.

يتحقق الإعجاز بثلاثة أمور مجتمعة:

١- وجود التحدي.

٢- قيام الدافع على رد هذا التحدي.

٣- انتفاء المانع من ذلك.

ادعى قوم أن إعجاز القرآن إنما كان بصرف الله للعرب عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذا القول باطل عقلاً ونقلاً.

وجوه أعجاز القرآن الكريم:

أولاً: الإعجاز اللغوي:

ويتمثل في النظم البديع الفريد، وفي الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية في نظامه الصوتي أو جماله اللغوي، أو مخاطبته للقلب والعقل معاً، أو جودة سبكه وإحكام حبكه، أو براعته في تصريف القول وتفننه في ضروب الكلام، أو جمعه بين الإجمال والبيان، ووفائه بالمعنى مع القصد في اللفظ.

ثانياً: الإعجاز التشريعي:

ويتمثل فيما يتضمنه من هداية تشريعية كاملة تفوق كل تشريع وضعي عرفته البشرية على مدار القرون، والأمر الذي أدى بالمجتمع الذي طبقت فيه

تشريعات القرآن إلى اختفاء شبح الجريمة من ساحته، مع تفرده في مجالات الشورى والمساواة.

ثالثاً: الإعجاز العلمي:

مطابقة الحقائق العلمية لما ورد في شأنها من الآيات القرآنية؛ وذلك لتقوم الحجة به على من لا تقوم عليهم الحجة بإعجازه اللغوي، ومن أمثلة ذلك:

١- ما قرره القرآن في نشأة الجنين وتطوره داخل الظلمات الثلاث.

٢- ما أخبر به من ضيق الصدر عند الارتفاعات الشاهقة نتيجة لنقص الأكسجين.

٣- ما قرره من تكون العالم الشمسي نتيجة لانقسام الغازات والسدائم.

وغيرها كثير لا يمكن حصره في هذا المقام.

تعامل الناس مع الإعجاز العلمي بطرائق ثلاث:

١- الغلو فيها والتكلف في تفسير القرآن بالنظريات العلمية قبل ثبوتها.

٢- التفريط فيها وإغلاق بابها حذراً مما وقع فيه الطرف الأول.

٣- الوسط بينهما وهم من أحكموا ضوابط البحث في هذا المجال ففرقوا بين الحقائق والنظريات فلم يغلقوا الباب و لم يفتحوه على مصراعيه.

دعائم البحث في مسائل الإعجاز العلمي:

١- الحقيقة الشريعة.

٢- الحقيقة الكونية.

٣- وجه الإعجاز.

الأقسام: جمع قسم وهو الحلف.

أولاً: صيغة القسم:

١- الصيغة الأصلية أن يؤتى بالفعل (أقسم أو أحلف) متعدياً بالباء إلى المقسم به.

٢- قد يحذف فعل القسم ويكتفي بالباء، أو يأتي عوضاً عنها الواو أو التاء.

ثانياً: فائدة القسم:

تمكين الشيء من نفس المخاطب لإزالة الشك والإنكار والخصومة.

ثالثاً: المقسم به في القرآن :

١- ذات الله عز وجل. ٢- مخلوقاته.

رابعاً: أنواع القسم:

١- الظاهر. ٢- المضمر.

٣- على جملة خبرية. ٤- يذكر جواب القسم أو يحذف.

خامساً: أحوال المقسم عليه:

- الأمور الغائبة الخفية أو ما لا ينبغي أن يختلف عليه.

- تجري بعض الأفعال مجرى القسم إذا كان سياق الكلام في معناه.

- إذا دخلت (لا) النافية على فعل القسم فإنها تحتمل وجهاً من ثلاثة:

١- نافية لمحذوف يناسب المقام. ٢- نافية للقسم. ٣- زائدة.

الجدل والجدال:

المفاوضة على سبيل المنازع والمغالبة.

طريقة القرآن في المناظرة تعتمد على ما يعرفه الخصم في بساطة وقوة لا تحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث.

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته:

أ- ذكر الآيات الكونية للاستدلال على أصل العقائد.

ب- ما يرد به على الخصوم ويلزم به أهل العناد، ومنها:

١- تقرير المخاطب بطريق الاستفهام.

٢- الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

٣- إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها.

٤- السبر والتقسيم بحصر الأوصاف، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم.

٥- إفحام الخصم بأن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد.

أسئلة التقويم الذاتي

١- ما معنى إعجاز القرآن؟

٢- اذكر شروط تحقق الإعجاز، مبيناً كيف تحقق إعجاز القرآن للعرب.

٣- كيف ترد على من يقولون بالصرفة؟

٤- اذكر وجوه الإعجاز القرآني المذكورة في الكتاب، مع ذكر دلائل الإعجاز في كل منها.

٥- كيف تعامل الناس في زماننا مع الإعجاز العلمي للقرآن؟

٦- ما هي دعائم البحث في مسائل الإعجاز العلمي؟

٧- اذكر معنى القسم والصيغ المستخدمة فيه.

٨- ما فائدة القسم في القرآن الكريم ؟

٩- اذكر المقسم به في القرآن الكريم .

١٠- هل يجوز الحلف بغير الله كالشمس أو الليل؟ ولماذا؟

١١- ما أنواع القسم؟ مثل لما تقول.

١٢- ما أحوال المقسم عليه في القرآن الكريم ؟ مثل لما تقول.

١٣- هل يصح أن تجري الأفعال مجرى القسم؟ ومتى؟

١٤- ما معنى دخول (لا) على القسم؟

١٥- عرف الجدل، اذكر الفرق بين طريقة القرآن وطريقة المتكلمين في المناظرة.

١٦- ما أنواع مناظرات القرآن وأدلته؟ مثل لكل نوع.

الوحدة السابعة

المحكم والمتشابه – ترجمة القرآن

الأهداف الخاصة

يتوقع منك – عزيزي الدارس – بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على معرفة ما يلي:

الفصل الأول:

١- معنى الإحكام والتشابه في اللغة.

٢- المقصود بالمحكم والمتشابه بالمعنى الخاص.

٣- الاختلاف في إمكان معرفة المتشابه.

٤- معنى التأويل.

٥- ما قيل في فواتح السور.

الفصل الثاني:

١- معنى الترجمة.

٢- أقسام الترجمة.

٣- حكم الترجمة الحرفية للقرآن.

٤- حكم الترجمة التفسيرية للقرآن.

٥- الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية.

٦- شروط الترجمة التفسيرية.

٧- موقف الأزهر من ترجمة معاني القرآن الكريم.

٨- فتاوى العلماء في شأن الترجمة وفي حمل المصحف إلى ديار الكفار.

تمهيد

للإحكام والتشابه إطلاقات لغوية وأخرى اصطلاحية:

فالأحكام في اللغة يطلق على عدة معان ترجع إلى شيء واحد وهو المنع، فيقال: أحكم الأمر أي أتقنه ومنعه من الفساد، ويقال أحكم الفرس أي جعل له حكمة تمنعه من الاضطراب.

والتشـــابه في اللغـــة يطلق على التماثل والتناسب المؤدي في الغالب إلى الالتـــباس يقال: تشابها أي أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا، ومنه الشبهة أي الالتباس، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[1].

ولقـــد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه، كما فيه ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه، ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة.

(١) البقرة: ٧.

أولاً: الإحكام والتشابه بالمعنى العام:

فالقـــرآن الكريم كله محكم على معنى الإتقان والصيانة وعدم تطرق الخلل إليه، قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

والقرآن الكريم كله متشابه على معنى أن بعضه يشبه بعضاً في الحسن والإحكام والإعجـــاز بحيث يصدق بعضه بعضاً، وبحيث يصعب التمييز بين آياته وكلماته في ذلك، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾[2].

ثانياً: الإحكام والتشابه بالمعنى الخاص:

والقرآن الكريم منه ما هو محكم قد اتضحت دلالته على المعنى المراد، ومنه مـــا هو متشابه لم تتضح دلالته، ويحتاج إلى بيان، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْـــزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّـــا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَـــا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّـــنَا وَمَـــا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[3]، وفي إطار هذا التقسيم الأخير سيكون حديثنا في هذه الدراسة.

---

(١) هود: ١.

(٢) الزمر: ٢٣.

(٣) آل عمران: ٧.

ثالثاً: المحكم والمتشابه بالمعنى الخاص:

اختلف أهل العلم في المقصود بالمحكم والمتشابه في آية آل عمران، على عدة أقوال منها:

أ- المحكم: ما عرف المراد منه، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه.

ب- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه: ما احتمل أوجهاً.

ج- المحكم: ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه: ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره.

ويمثلون للمحكم في القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده، للمتشابه: بمنسوخه وكيفيات أسماء الله وصفاته التي في مثل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[2]، وقوله: ﴿يدُ الله فوق أيديهم﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[4]، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[5]، إلى غير ذلك، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم، وحقائق اليوم الآخر وعلم الساعة.

رابعاً: الاختلاف في معرفة المتشابه:

وكما وقع الاختلاف في معنى كل من المحكم والمتشابه الخاصين وقع الاختلاف في إمكان معرفة المتشابه، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ هل هو مبتدأ خبره: ﴿يقولون﴾ والواو للاستئناف،

---

(١) طه: ٥.

(٢) القصص: ٨٨.

(٣) الفتح: ١٠.

(٤) الأنعام: ١٨.

(٥) الفجر: ٢٢.

والوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أو هو معروف وجملة (يقولون) حال والوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

فذهب إلى الأول (الاستئناف) طائفة منهم أبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، مستدلين بمثل ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ (وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به) وبقراءة ابن مسعود: (وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به).

ومما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم"[1].

وذهب إلى الرأي الثاني (العطف) طائفة على رأسهم مجاهد، وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال: يعلمون تأويله ويقولون: (أمنا به) واختار هذا القول النووي، فقال في شرح مسلم: إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل:

بالرجوع إلى معنى (التأويل) يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين، فإن لفظ التأويل ورد لثلاثة معان:

---

(١) متفق عليه.

الأول: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين.

الثاني: التأويل بمعنى التفسير، فهو الكلام الذي يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه.

الثالث: التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة ومالها من حقائق الصفات، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر، وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي" يتأول القرآن، تعني قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[1]"[2].

فالذين يقولون بالوقف على قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ﴾ ويجعلون: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ استئنافاً، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث: أي الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله.

والذين يقولون بالوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على أن الواو للعطف وليست للاستئناف، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثاني أي التفسير، ومجاهد إمام المفسرين، قال الثوري فيه: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف الاختلاف في معنى التأويل.

ففي القرآن الكريم ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا، ولكن

---

(١) سورة النصر: ٣

(٢) متفق عليه.

الحقـــيقة ليست كالحقيقة، فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصـــفاتهم تشـــابه في اللفظ والمعنى الكلي إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاه والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون الفرق بينها، وأمـــا نفس الحقيقة فهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، ولهذا لما سئل مالك وغـــيره من السلف عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] قالوا: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجبٌ والسؤال عنه بدعة" فبينوا أن الاستواء معلوم، وأن كيفية ذلك مجهولة.

وكذلـــك الشأن بالنسبة إلى إخبار الله عن اليوم الآخر، ففيه ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة، ففي الآخرة ميزان وجنة ونـــار، وفي الجـــنة: ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾[2].

وفيها: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْـــثُوثَةٌ﴾[3]. وذلك نعلمه ونؤمن به وندرك أن الغائب أعظم من الشاهد، وما في الآخـــرة يمتاز عما في الدنيا، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا، وهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله.

خامساً: كلمة فيما يتعلق بفواتح السور:

لقد انقسم العلماء في تأويل هذا الفواتح في الجملة إلى مذهبين:

أحدهمـــا: إن لهـــذه الفواتح علماً مستوراً وسراً محجوباً استأثر الله بعلمه

---

(١) طه: ٥.

(٢) محمد: ١٥.

(٣) الغاشية: ١٣- ١٦.

وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد روى عنه أنه قال: "في كل كتاب سر، وسره في القرآن في أوائل السور"[1].

ثانيها: إن لهذه الفواتح مراداً معلوماً ومعنى يمكن الوصول إليه بالنظر والبحث وإلى هذا ذهب جمهور الباحثين، وهو المروي عن ابن عباس وعلي ابن أبي طالب وجمع كبير من الصحابة [2].

ولأصحاب هذا المذهب الثاني تأويلات وتحليلات مختلفة، قال ابن فارس يحتمل أن تكون كلها مقصودة، ومن أقرب هذه التأويلات إلى النظر ما يلي:

ما ذهب إليه قطرب والفراء والمبرد وعامة علماء العربية وجمع عظيم من المحققين من أن هذه الأحرف المقطعة إنما افتتحت بها السور لتدل على أن القرآن ليس إلا كتاباً ألف من هذه الأحرف الهجائية (أ- ب- ت- ث- ج....) إلخ، هي تلك التي تبنون كلامكم وأشعاركم منها، ومع ذلك فلن يستطيعوا أن يؤلفوا من هذه الأحرف كلاماً مثله [3].

والذي يرجح هذا التفسير أن هذه السور التي افتتحت بالأحرف المقطعة غالباً ما يذكر بعدها ما يدل على معنى الكتاب: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وفي سورة يونس: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ الخ.

وكأن المعنى باختصار أن الله يقول في هذه السور يا أمة العرب، يا أرباب الفصاحة ويا أهل البلاغة، لقد أنزلت هذا الكتاب من هذه الأحرف، وركبت

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٥٤) والبرهان للزركشي (١/ ١٧٢).

(٢) انظر القرطبي (١/ ١٥٥)، ومشكل القرآن لابن قتيبة ٦٣، ٦٤.

(٣) البرهان (١/ ١٨٥) تفسير القرطبي (١/ ٦٧) الفخر الرازي (١/ ٢٣٠).

كلماته وعباراته منها، وأنتم تتكلمون بها، هذه هي المادة الخام أوجدها أمامكم فإذا كنتم تكذبون محمداً صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثل الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ﴾[1]، وبعد ذلك أحضروا لجنة تحكيم تحكم بين وبينكم، وأنا لا أدعو هذه اللجنة بل ادعوها أنتم حتى لا يقال إن محمداً صلى الله عليه وسلم رجل متعصب! قال تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[2]، وعلماء اللغة العربية يقولون: إن شرطية، ولم نافيه في الماضي والحاضر، ولن نافية في المستقبل، أي إن لم تفعلوا في الماضي والحاضر ولن تفعلوا في المستقبل فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، والله أعلم.

(١) البقرة: ٢٣.

(٢) البقرة: ٢٣، ٢٤.

الفصل الثاني: ترجمة القرآن وتفسيره بغير لغته

معنى الترجمة:

تفسير القرآن بغير لغته، أو الترجمة التفسيرية للقرآن، بحيث نرى من الواجب علينا أن نعرض له؛ لما له من تعلق وثيق بموضوع هذا الكتاب.

الترجمة في اللغة:

وضعت كلمة ترجمة في اللغة العربية، لتدل على أحد معان أربعة:

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يبلغه، ومنه قول الشاعر:

إن الثمانين – وبلغتها – قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ثانيها: تفسير الكلام بلغته التي جاء بها، ومنه قيل في ابن عباس: إنه ترجمان القرآن.

ثالثاً: تفسير الكلام بلغة غير لغته.

رابعاً: نقل الكلام من لغة إلى أخرى.

الترجمة في العرف:

نريد بالعرف هنا عرف التخاطب العام، لا عرف طائفة خاصة ولا أمة معينة، جاء هذا العرف الذي تواضع عليه الناس جميعاً، فخص الترجمة بالمعنى الرابع اللغوي في إطلاقات اللغة السابقة، وهو نقل الكلام من لغة إلى أخرى.

أقسام الترجمة:

وعـــلى هذا فالترجمة تنقسم إلى قسمين: ترجمة حرفية، وترجمة معنوية أو تفسيرية.

أمـــا الترجمة الحرفية: فهي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى، مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم.

وأما الترجمة التفسيرية: فهي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه.

الترجمة الحرفية للقرآن:

الـــترجمة الحرفية للقرآن: إما أن تكون ترجمة بالمثل، وإما أن تكون ترجمة بغير المثل.

أمـــا الـــترجمة الحرفية بالمثل: فمعناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكـــيه حـــذوا بحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته، وأسلوبها محل أســـلوبه، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعاني المقيدة بكيفياتها البلاغـــية وأحكامها التشريعية، وهذا أمر غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز، وذلك لأن القرآن نزل لغرضين أساسين:

أولهما: كونه آية دالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه، وذلك بكونه معجزاً للبشر، لا يقدرون على الإتيان بمثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك.

وثانيهما: هداية الناس لما فيه صلاحهم في دنياهم وأخراهم.

أمـــا الغرض الأول: وهو كونه آية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقاً، فإن القرآن – وإن كان الإعجاز في جملته لعدة

معان كالإخبار بالغيب، واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل، وغير ذلك مما عد من وجـــوه إعجـــازه — إنما يدور الإعجاز الساري في كل آية منه على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة، هذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقـــاً، فإن اللغات وإن كان لها بلاغة، ولكن لكل لغة خواصها لا يشاركها فـــيها غيرها من اللغات، وإذا فلو ترجم القرآن ترجمة حرفية — وهذا محال — لضـــاعت خـــواص القرآن البلاغية، ولنزل من مرتبته المعجزة، إلى مرتبة تدخل تحـــت طوق البشر، ولفات هذا المقصد العظيم الذي نزل القرآن من أجله على محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما الغرض الثاني: وهو كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم في الدارين فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه، وهذا يرجع بعضه إلى المعاني الأصلية الـــتي يشـــترك في تفاهمها وأدائها كل الناس، تقوى عليها جميع اللغات، وهذا النوع من المعاني يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه، وبعض آخر من الأحكام والإرشـــادات يستفاد من المعاني الثانوية ونجد هذا كثيراً في استنباطات الأئمة المجـــتهدين؛ وهـــذه المعاني الثانوية لازمة للقرآن الكريم وبدونها لا يكون قرآنًا، والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعاني الأولية، فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعاني الثانوية ضرورة أنها لازمة للقرآن دون غيره من سائر اللغات.

ومما تقدم يعلم: أن الترجمة الحرفية للقرآن، لا يمكن أن تقوم مقام الأصل في تحصـــيل كل ما يقصد منه؛ لما يترتب عليه من ضياع الغرض الأول برمته، وفوات شطر من الغرض الثاني.

وأمـــا الترجمة بغير المثل: فمعناها أن يترجم نظم القرآن حذوا بحذو بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته، وهذا أمر ممكن، وهو إن جاز في كلام البشر، لا

يجـــوز بالنسبة لكتاب الله العزيز، لأن فيه من فاعله إهداراً لنظم القرآن وإخلالاً بمعناه وانتهاكًا لحرمته، فضلاً عن كونه فعلاً لا تدعو إليه ضرورة.

الترجمة الحرفية ليست تفسيراً للقرآن:

اتضح لنا مما سبق معنى الترجمة الحرفية بقسميها، وأقمنا الدليل بما يناسب المقـــام على عدم إمكان الترجمة الحرفية بالمثل، وعدم جواز الترجمة الحرفية بغير المـــثل وإن كانت ممكنة، ولكن بقى بعد ذلك هذا السؤال، هل الترجمة الحرفية بقسيمها —على فرض إمكانها في الأول جوازها في الثاني — تسمى تفسيراً بغير لغته؟ أو لا تدخل تحت مادة التفسير؟ وللجواب عن هذا نقول:

إن الـــترجمة الحرفـــية بالمثل ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته؛ لأنها عـــبارة عـــن هـــيكل القرآن بذاته، إلا أن الصورة اختلفت باختلاف اللغتين: المـــترجم منها والمترجم إليها، وعلى هذا فأبناء اللغة المترجم إليها يحتاجون إلى تفسيره وبيان ما فيه من أسرار وأحكام، كما يحتاج العربي الذي نزل بلغته إلى تفســـيره والكشف عن أسراره وأحكامه، ضرورة أن هذه الترجمة لا شرح فيها ولا بـــيان، وإنما فيها إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه، ونقل معنى الأصل كما هو من لغة إلى لغة أخرى.

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل فهي ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته؛ لأنهـــا عبارة عن هيكل للقرآن منقوص غير تام، وهذه الترجمة لم يترتب عليها ســـوى إبدال لفظ للفظ آخر يقوم مقامه في تأدية بعض معناه، وليس في ذلك شـــيء من الكشف والبيان، لا شرح مدلول، ولا بيان مجمل، ولا تقييد مطلق، ولا اســـتنباط أحكـــام، ولا توجيه معان، ولا غير ذلك من الأمور التي اشتمل عليها التفسير المتعارف.

الترجمة التفسيرية للقرآن:

الـترجمة التفسيرية أو المعنوية، تقدم لنا أنها عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون محافظة على نظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه، وذلك بأن تفهم المعنى الذي يراد من الأصل، ثم تأتي له بتركيب من اللغة المترجم إليها يؤديه على وفق الغرض الذي سيق له.

وعـلم ممـا تقـدم مقدار الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية، ولإيضاح هذا الفرق نقول:

لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[1]، ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهي عن ربـط اليد في العنق، وعن مدها غاية المد، مثل هذا التعبير في اللغة المترجم إليها ربما كان لا يؤدي المعنى الذي قصده القرآن، بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هـذا الوضع الذي ينهي عنه القرآن، ويقول في نفسه: إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذي نهى عنه القرآن، لأنه مثير للضحك على فاعله والسخرية مـنه، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة، المعنى الذي أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ، أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة تفسيرية، فإنه يـأتي بالنهي عن التبذير والتقتير، مصورين بصورة شنيعة، ينفر منها الإنسان، حسـبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها، ويناسب إلف من يتكلم بها، مـن هـذا يتبين أن الغرض الذي أراده الله من هذه الآية، يكون مفهوماً بكل سهولة ووضوح في الترجمة التفسيرية، دون الترجمة الحرفية.

إذا عـلم هـذا، أصبح من السهل علينا وعلى كل إنسان أن يقول بجواز

---

(١) الإسراء: ٢٩.

ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية بدون أن يتردد أدنى تردد، فإن ترجمة القرآن ترجمة تفسيريه ليست سوى تفسير للقرآن الكريم بلغة غير لغته التي نزل بها.

وحيث اتفقت كلمة المسلمين، وانعقد إجماعهم على جواز تفسير القرآن لمن كان من أهل التفسير بما يدخل تحت طاقته البشرية، بدون إحاطة بجميع مراد الله، فإنا لا نشك في أن الترجمة التفسيرية للقرآن داخلة تحت هذا الإجماع أيضاً؛ لأن عبارة الترجمة التفسيرية محاذية لعبارة التفسير، لا لعبارة الأصل القرآني.

الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية:

لـــو تأملنا - أدنى تأمل - لوجدنا أنه يمكن أن يفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية من جهتين:

الجهة الأولى: اختلاف اللغتين: فلغة التفسير تكون بلغة الأصل، كما هو المتعارف المشهور، بخلاف الترجمة التفسيرية فإنها تكون بلغة أخرى.

الجهـــة الثانية: يمكن لقارئ التفسير ومتفهمه أن يلاحظ معه نظم الأصل ودلالته، فإن وجده خطأ نبه عليه وأصلحه، ولو فرض أنه لم يتنبه لما في التفسير من خطأ تنبه له قارئ آخر، أما قارئ الترجمة فإنه لا يتسنى له ذلك، لجهله بنظم القرآن ودلالته، بل كل ما يفهمه ويعتقده؛ أن هذه الترجمة التي يقرؤها، ويتفهم معـــناها تفسير صحيح للقرآن، وأما رجوعه إلى الأصل ومقارنته بالترجمة فليس مما يدخل تحت طوقه ما دام لم يعرف لغة القرآن.

شروط الترجمة التفسيرية:

أولاً: أن تكون الترجمة على شريطة التفسير، لا يعول عليها إلا إذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية، وعلوم اللغة العربية، والأصول المقررة في الشريعة الإســـلامية، فلا بد للمترجم من اعتماده في استحضار معنى الأصل على تفسير

عربي مستمد من ذلك، أما إذا استقل برأيه في استحضار معنى القرآن، أو اعتمد على تفسير ليس مستمداً من تلك الأصول، فلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها، كما لا يعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمداً من تلك المناهل، معتمداً على هذه الأصول.

ثانياً: أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن، هذا شرط في المفسر أيضاً، فإنه لو مال واحد منهما إلى عقيدة فاسدة لتسلطت على تفكيره، فإذا بالمفسر قد فسر طبقاً لهواه، وإذا بالمترجم وقد ترجم وفقاً لميوله، وكلاهما يبعد بذلك عن القرآن وهداه.

ثالثاً: أن يكون المترجم عالماً باللغتين: المترجم منها والمترجم إليها، خبيراً بأسرارهما، يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما.

رابعاً: أن يكتب القرآن أولاً، ثم يؤتى بعده بتفسيره، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن.

حكم ترجمة القرآن:

ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة أجنبية (الترجمة التفسيرية):

وهو الإطلاق الثالث المستند إلى اللغة أيضاً ويراد به تفسير القرآن بلغة غير لغته، أي بلغة أعجمية لا عربية، ولا ريب عندنا في أن تفسير القرآن بلسان أعجمي لمن لا يحسن العربية، يجري في حكمه مجرى تفسيره بلسان عربي لمن يحسن العربية، فكلاهما عرض لما يفهمه المفسر من كتاب الله بلغة يفهمها مخاطبه، لا عرض لترجمة القرآن نفسه، وكلاهما حكاية لما يستطاع من المعاني والمقاصد، لا حكاية لجمع المقاصد، وتفسير القرآن الكريم يكفي في تحققه أن يكون بياناً لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ولو جاء على احتمال واحد.

ترجمة القرآن بمعنى نقله إلى لغة أخرى (الترجمة الحرفية):

وهذا هو الإطلاق الرابع المستند إلى اللغة، ثم هو الإطلاق الوحيد في عرف التخاطب الأممي العام.

وهـــو ما سبقت الإشارة إليه في بحثنا بالترجمة الحرفية، وقد بينا هناك ما يفـــيد أنها حرام ولا تجوز شرعاً، ونبين لك هنا باختصار حيثيات أو أدلة هذا الحكم.

الأول: إن طلـــب المستحيل العادي حرمه الإسلام، أيا كان هذا الطلب؛ ولأن القرآن نفسه أعذر حين أنذر أنه لا يمكن أن يأتي الجن والإنس بمثله، وإن اجتمعوا له، وكان بعضهم لبعض ظهيراً.

الثاني: إن محاولة هذه الترجمة فيها ادعاء عمل لإمكان وجود مثل أو أمثال القرآن، وذلك تكذيب شنيع لصريح الآية السابقة. ولقوله سبحانه: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ**﴾[1]،

الثالث: إن محاولة هذه الترجمة تشجع الناس على انصرافهم عن كتاب ربهم مكتبين ببدل أو أبدال يزعمونها ترجمات له، وإذا امتد الزمان بهذه الترجمات فسيذهب عنها اسم الترجمة ويبقى اسم القرآن وحده علماً عليها، ويقولون: هذا قرآن بالإنجليزية، وذاك قرآن بالفرنسية، وهكذا، ثم يحذفون هذا المتعلق بعد ويجترئون بإطلاق لفظ القرآن على الترجمة .

وهل تشك بعد ذلك في حرمة كل ما يؤدي إلى صرف الناس عن كتاب الله، وإلى تفرقهم عنه وضلالهم في مسماه؟

الرابع: أننا لو جوزنا هذه الترجمة، ووصل الأمر إلى حد أن يستغني الناس

---

(١) يونس: ١٥.

عــن القرآن بترجماته، لتعرض الأصل العربي للضياع كما ضاع الأصل العبري للتوراة والإنجيل.

الخــامس: إن الأمــة أجمعت على عدم جواز رواية القرآن بالمعنى، وأنت خبير بأن ترجمة القرآن بهذا المعنى الحرفي، تساوي روايته بالمعنى.

وعــلى هــذا يقال إذا كانت رواية القرآن بالمعنى في كلام عربي ممنوعة إجماعاً، فهذه الترجمة ممنوعة كذلك، قياساً على هذا المجمع عليه، بل هي أحرى بالمنع، للاختلاف بين لغتها ولغة الأصل.

موقف الأزهر من ترجمة معاني القرآن الكريم:

بعــد مناقشات موسعة دراسات مستفيضة قررت مشيخة الأزهر في مصر إعــداد تــرجمة تفسيرية للقرآن الكريم، وشكلت لذلك لجنة برئاسة مفتي مصر الأكبر لوضع تفسير عربي دقيق للقرآن الكريم تمهيداً لترجمته ترجمة دقيقة بواسطة لجــنة فنية مختارة، وقد انتهت هذه اللجنة إلى وضع دستور تلتزم به أثناء قيامها بهــذا العمل الجليل، ثم بعثت به إلى أكابر علماء العالم الإسلامي تستطلع رأيهم حوله، وفيما يلي ذكر هذه القواعد التي قررتها اللجنة في هذا المقام حتى نضيفها إلى القواعد السابقة التي سبق الحديث عنها في شروط الترجمة التفسيرية:

١- أن يكون التفسير خالياً ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية، إلا ما استدعاه فهم الآية.

٢- ألا يــتعرض فيه للنظريات العلمية، فلا يذكر مثلاً التفسير العلمي للرعد والــبرق عند آية فيها رعد وبرق، ولا رأي الفلكيين في السماء والنجوم، عــند آيــة فــيها سماء ونجوم، إنما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربي، ويوضح موضوع العبرة والهداية فيها.

٣- إذا مست الحاجة إلى التوسع في تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة في حاشية التفسير.

٤- ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها، ولا تتعسف في تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك.

٥- أن يفسر القرآن بقراءة حفص، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة إليها.

٦- أن يجتنب التكلف في ربط الآيات والسور بعضها ببعض.

٧- أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث، وأعان على فهم الآية.

٨- عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت مرتبطة بموضوع واحد، ثم تحرر معاني الكلمات في دقة، ثم تفسر معاني الآية أو الآيات مسلسلة في عبارة واضحة قوية، ويوضع سبب النزول والربط وما يؤخذ من الآيات في الوضع المناسب.

٩- ألا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات.

١٠- يوضع في أوائل كل سورة ما تصل إليه اللجنة من بحثها في السورة، أمكية هي أم مدنية؟ وماذا في السورة المكية من آيات مدنية والعكس.

١١- توضع للتفسير مقدمة في التعريف بالقرآن وبيان مسلكه في كل ما يحتويه من فنونه، كالدعوة إلى الله، وكالتشريع، والقصص، والجدل، ونحو ذلك، كما يذكر فيها منهج اللجنة في تفسيرها.

طريقة التفسير:

ورأت اللجنة بعد ذلك أن تضع قواعد خاصة بالطريقة التي تتبعها في تفسير معاني القرآن الكريم، ننشرها فيما يلي:

١- تبحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور، فتفحص مروياتها وتنقد، ويدون الصحيح منها بالتفسير، مع بيان وجه قوة القوي، وضعف الضعيف من ذلك.

٢- تبحث مفردات القرآن الكريم بحثاً لغوياً، وخصائص التراكيب القرآنية بحثاً بلاغياً وتدون.

٣- تبحث آراء المفسرين بالرأي والتفسير بالمأثور، ويختار ما تفسر الآية به، مع بيان وجه رد المردود وقبول المقبول.

٤- وبعد ذلك كله يصاغ التفسير مستوفياً ما نص على استيفائه في الفقرة الثانية من القواعد السابقة، وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب لأفهام جمهرة المتعلمين خال من الإغراب والصنعة [1].

من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية بشأن ترجمة القرآن:

س: ترجمة القرآن أو بعض آياته إلى لغة أجنبية أو أعجمية بقصد نشر الدعوة الإسلامية الحقة في بلاد غير المسلمين، هل في هذا العمل ما يخالف الشرع والدين؟

* الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد:

ترجمة القرآن أو بعض آياته والتعبير عن جميع المعاني المقصود إليها من ذلك غير ممكن، وترجمته أو بعضه ترجمة حرفية غير جائزة، لما فيها من إحالة المعاني وتحريفها.

أما ترجمة الإنسان ما فهمه من معنى آية أو أكثر وتعبيره عما فهمه من

(١) مناهل العرفان للزرقاني (٢/ ١٨٤- ١٨٦).

أحكامه وآدابه بلغة إنجليزية أو فرنسية، أو فارسية مثلاً لينشر ما فهمه من القرآن، ويدعو الناس إليه فهو جائز، كما يفسر الإنسان ما فهمه من القرآن أو آيات منه باللغة العربية وذلك بشرط أن يكون أهلا لتفسير القرآن وعنده قدرة على التعبير عما فهمه من الأحكام والآداب بدقة، فمن لم تكن لديه وسائل تعينه على فهم القرآن أو لم يكن لديه اقتدار على التعبير عنه بلغة عربية أو غير عربية تعبيراً دقيقاً فلا يجوز له التعرض لذلك خشية أن يحرف كلام الله عن مواضعه فينعكس عليه قصده، ويصير قصده المعروف منكراً وإرادته الإحسان إساءة[1].

س: هل يمكن أن يترجم القرآن إلى اللغة الفرنسية مثلاً ويقرؤه الكفار، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ﴾[2]، ومكتوب على عنوان هذا الكتاب: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾[3]؟

* الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد:

لا يمكن ترجمة القرآن ترجمة مماثلة في دقة تعبيره وعلو أسلوبه وجمال سبكه وإحكام نظمه، وتقوم مقامه في إعجازه وتحقيق جميع مقاصد من إفادة الأحكام والآداب، والإبانة عن العبر والمعاني الأصلية والثانوية ونحو ذلك مما هو من خواصه ومزاياه المستمدة من كمال بلاغته وفصاحته، ومن حاول ذلك فمثله كمثل من يحاول أن يصعد إلى السماء بلا أجهزة ولا سلم، أو يحاول أن يطير

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (٢/ ١٣٢).

(٢) الواقعة: ٧٧- ٧٩.

(٣) النساء: ١٢٦-١٢٧.

في الجو بلا أجنحة ولا آلات.

ويمكن أن يعبر العالم عما فهمه من معاني القرآن حسب وسعه وطاقته بلغة أخرى؛ ليبين لأهلها ما أدركه فكره من هداية القرآن وما استنبطه من أحكامه أو وقف عليه من عبره ومواعظه، لكن لا يعتبر شرحه لتلك بغير اللغة العربية قرآناً ولا يترل منزلته من جميع النواحي بل هو نظير تفسير القرآن باللغة العربية في تقريب المعاني والمساعدة على الاعتبار واستنباط الأحكام، ولا يسمى ذلك التفسير قرآناً، وعلى هذا يجوز للجنب والكفار مس ترجمة معاني القرآن بغير اللغة العربية كما يجوز مسهم تفسيره باللغة العربية.

س: هل يجوز حمل المصحف إلى بلاد الكفر؟

أجابت على هذا السؤال اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية وهذا نص الفتوى:

"الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد:

حمل المسلم المصحف - القرآن - إلى بلاد الكفر من المسائل التي اختلف الفقهاء في حكمها:

فقال جماعة منهم بجواز حمله إلى بلادهم، وقال آخرون: بمنع ذلك، لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن السفر به إلى بلادهم خشية أن يمتهنوه أو يحرقوه أو يشبهوا على المسلمين فيه، روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو"، وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه "كان ينهي أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله

العدو، ولا تسافروا بالقرآن فإني لا آمن أن يناله العدو"[1].

وقال آخرون يجوز حمله إلى بلادهم للبلاغ وإقامة الحجة عليهم، وللتحفظ والـــتفهم لأحكامه عند الحاجة إذا كان للمسلمين قوة أو سلطان ، أو ما يقوم مقامهما من العهود والمواثيق ونحو ذلك مما يكفل حفظه ويرجى معه التمكن من الانـــتفاع به في البلاغ والحفظ والدراسة، ويؤيد ذلك ما ورد في آخر حديث النهي عن السفر به إلى بلادهم من التعليل.

وهذا الأخير هو الأرجح، لحصول المصلحة مع انتفاء المفسدة التي خشيها النبي صلى الله عليه وسلم [2].

(١) رواه مـــالك وأحمد والنسائي وابن ماجة. وقال الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٣٠٥ في صحيح الجامع.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة: (٤/ ٤٢، ٤٣).

الخلاصة

الإحكام في اللغة: المنع.

التشابه في اللغة: التماثل.

القرآن الكريم: كله محكم على معنى الإتقان والصيانة، وكله متشابه على معنى التماثل في الحسن والإحكام، ومنه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه بالمعنى الخاص.

ما قيل في المحكم والمتشابه بالمعنى الخاص:

١- المحكم: ما عرف المراد منه، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه.

٢- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه: ما احتمل أوجهاً.

٣- المحكم: ما لم يحتج إلى بيان ، والمتشابه: ما احتاج إلى بيان.

ومثلوا للمحكم في القرآن: بناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، ووعده، ووعيده.

ومثلوا للمتشابه فيه: بمنسوخه، وكيفيات أسماء الله وصفاته، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم، وحقائق اليوم الآخر، وعلم الساعة.

اختلف العلماء في إمكان معرفة المتشابه:

١- فمنهم من قال بعدمه، لقراءته بالاستئناف.

٢- ومنهم من قال بجوازه، لقراءاته بالعطف.

وكلا الرأيين صواب تبعاً لمعنى التأويل الذي يحتمل ثلاثة معان:

١- صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح.

٢- التفسير (وبه أخذ الفريق الثاني).

٣- الحقيقة التي يؤول إليها الكلام (وبه أخذ الفريق الأول).

ما قيل في فواتح السور: قولان:

الأول: أنها علم مستور، وسر محجوب (وبه قال الصديق رضي الله عنه).

الثاني: أن لها مراداً معلوماً يحتمل أن يكون تحدي العرب بحروف لغتهم.

معنى الترجمة:

١- نقل الكلام من لغة إلى لغة بدون بيان لمعنى الأصل المترجم.

٢- تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى.

أقسام الترجمة:

١- ترجمة حرفية: نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معاني ومقاصد الأصل المترجم.

٢- ترجمة تفسيرية: شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه.

الترجمة الحرفية للقرآن:

١- بالمثل: غير ممكنة.

٢- بغير المثل: ممكنة وغير جائزة.

وهي لا تعتبر تفسيراً للقرآن.

الترجمة التفسيرية للقرآن: ممكنة وجائزة باتفاق.

الفرق بين التفسير وبين الترجمة التفسيرية من جهتين:

الأول: اختلاف اللغتين.

الثانية: إمكانية فهم القارئ للنص الأصلي في التفسير دون الترجمة.

شروط الترجمة التفسيرية:

١- أن تكون على شريطة التفسير .

٢- أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة.

٣- أن يكون المترجم عالماً باللغتين.

٤- أن يكتب القرآن أولاً ثم تفسيره ثم ترجمة التفسير.

* لا تعتبر الترجمة التفسيرية للقرآن كالقرآن في منزلته بل تعتبر كالتفسير.

* يجـــوز حمـــل المصحف إلى بلاد الكفار – على الراجح – لما فيه من مصلحة وانتفاء ما يخشى من المفسدة.

أسئلة التقويم الذاتي

١- ما معنى الإحكام والتشابه في اللغة، وبالنسبة للقرآن الكريم؟

٢- هل يمكن معرفة المتشابه من القرآن؟ وضح مبيناً دليل ما تقول.

٣- ما معنى التأويل؟ وكيف يمكن من معرفة معنى التأويل التوفيق بين الرأيين في معرفة المتشابه؟

٤- اذكر ما ذهب إليه السلف في فواتح السور.

٥- بين معاني الترجمة وأقسامها.

٦- ما الذي يجوز من الترجمة وما الذي لا يجوز مع إمكانه، وما الذي لا يمكن في حق الكتاب العزيز؟ ولماذا؟

٧- وضح الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية.

٨- اذكر شروط الترجمة التفسيرية.

٩- هل تعتبر الترجمة التفسيرية للقرآن كالقرآن في منزلته؟

١٠- وضح موقف الأزهر الشريف من ترجمة معاني القرآن الكريم.

١١- وضح حكم حمل المصحف إلى ديار الكفار، مع ذكر الأدلة على ما تقول.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الوحدة الأولى	
مبادئ علوم القرآن	٥
المقدمة.	٦
تعريف علوم القرآن.	٧
بيان موضوع علوم القرآن.	١٥
الفائدة من دراسة علوم القرآن.	١٦
نشأة هذا العلم.	١٨
تسمية العلم.	٢٢
حكم دراسة علوم القرآن .	٢٤
فضل علوم القرآن.	٢٥
نسبة علوم القرآن إلى غيرها من العلوم.	٢٥
الخلاصة.	٢٦
أسئلة التقويم الذاتي.	٢٨
الوحدة الثانية	
نزول القرآن وما يتعلق به	٢٩
المقدمة.	٣٠
معنى نزول القرآن .	٣١

تنـــزلات القرآن. ٣٧
كيفية إنزال القرآن على النبي ﷺ. ٤٠
الحكم والأسرار في تنجيم القرآن الكريم . ٤٢
الوحي. ٤٦
أول ما نزل وآخر ما نزل. ٥٥
نزول القرآن على سبعة أحرف. ٥٩
الخلاصة. ٦٦
أسئلة التقويم الذاتي. ٦٨
الوحدة الثالثة
أسباب النزول ٦٩
المقدمة. ٧٠
معنى سبب النزول. ٧١
فوائد معرفة أسباب النزول. ٧٣
طريق معرفة سبب النزول. ٨٠
التعبير عن سبب النزول. ٨١
تعدد الأسباب والنازل واحد. ٨٥
تعدد النازل والسبب واحد. ٩١
العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ٩٣
الخلاصة. ٩٩
أسئلة التقويم الذاتي. ١٠٢

الوحدة الرابعة

جمع القرآن وتدوينه وكتابته ١٠٣

المراد بجمع القرآن . ١٠٤

أطوار جمع القرآن . ١٠٦

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان. ١١٥

ترتيب الآيات في السور توقيفي. ١١٦

تسمية السور. ١١٩

الرسم العثماني. ١٢٠

إعجام المصحف. ١٢٢

شبه مردودة. ١٢٣

تعريف القراءات ومعرفة نشأتها. ١٣٠

أول من صنف في القراءات. ١٣٣

متى اشتهرت القراءات السبع ومتى دونت؟ ١٣٣

الضابط العلمي لاعتماد القراءات. ١٣٤

فوائد الاختلاف في القراءات. ١٣٧

الخلاصة. ١٣٩

أسئلة التقويم الذاتي. ١٤٢

الوحدة الخامسة

المكي والمدني ١٤٣

تعريف المكي والمدني. ١٤٤

السبيل إلى معرفة المكي والمدني. ١٤٦

خصائص كل منهما. ١٤٧
الفائدة من معرفة هذا العلم. ١٤٩
الشبهات التي أثيرت حول المكي والمدني وردها. ١٥٠
أهمية معرفة الوقف والابتداء. ١٥٩
أقسام الوقف. ١٦٠
الخلاصة. ١٦٢
أسئلة التقويم الذاتي. ١٦٤

الوحده السادسة

إعجاز القرآن وأقسامه ١٦٥
معنى إعجاز القرآن . ١٦٦
وجوه أعجاز القرآن الكريم. ١٦٨
بطلان القول بالصرفة. ١٦٨
الإعجاز اللغوي في القرآن . ١٧٠
الإعجاز التشريعي في القرآن . ١٧٣
الإعجاز العلمي في القرآن . ١٧٦
تعريف القسم. ١٨١
المقسم به في القرآن الكريم . ١٨٢
أنواع القسم. ١٨٣
أحوال المقسم عليه. ١٨٤
جدل القرآن ١٨٥
تعريف الجدل ١٨٥

طريقة القرآن في المناظرة ١٨٥
أنواع من مناظرات القرآن وأدلته ١٨٨
الخلاصة. ١٩٢
أسئلة التقويم الذاتي. ١٩٦

الوحدة السابعة

المحكم والمتشابه وترجمة القرآن ١٩٧

الإحكام والتشابه بالمعنى العام والخاص. ١٩٩
الاختلاف في معرفة المتشابه. ٢٠١
التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل. ٢٠٢
كلمة فيما يتعلق بفواتح السور. ٢٠٤
ترجمة القرآن وتفسيره بغير لغته ٢٠٦
معنى الترجمة. ٢٠٦
أقسام الترجمة. ٢٠٧
الترجمة الحرفية للقرآن. ٢٠٩
الترجمة التفسيرية للقرآن. ٢١٠
الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية. ٢١١
حكم ترجمة القرآن . ٢١٢
من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية. ٢١٦
الخلاصة. ٢٢١
أسئلة التقويم الذاتي. ٢٢٤